السـلـطة العُـلـيا

إعادة تصميم الذات

هايل علي المذابي

إهداء

نجيد الغوص في الأعماق و لا نجد بحراً نغوصه إلا نحن..!!

نجيد تسلق القمم و لا نجد حولنا سوى صحراء كل يوم تزداد اتساعا..!!

نملك الدلو و لا بئر نعرف الطريق إليها..!!

نملك خريطة الكنز و لا نجد ضوءا نستطلع به طرقها و تفاصيلها..!!

نملك أحذية فاخرة و لكننا لا نستطيع أن نسير بغير عكاز..!؟

بالقرب من منازلنا معابد كثيرة لكن قلوبنا بعيدة جدا عن السماء..!

المحتويات

تصدير 7
سُلطة الخلق 10
سُلطة التقليد..!!؟ 10
سُلطة الخلق 11
سُلطة التقليد 12
التقليد كمفهوم معاصر..!؟ 14
معركة قديمة !! 15
سُلطة الاسم وسُلطة السياق وسُلطة تحرير الذات مما يستعمرها 18
سُلطة الاسم 18
سُلطة السياق 24
سُلطة تحرير الذات مما يستعمرها 30
سُلطة الكاتلوج 32
سُلطة الدوافـــــع 35
سُلطة الرابط 40
سُلطة الوهم 43
سُلطة البرهان الاجتماعي 47
سُلطة العرض وسُلطة الطلب 50
سُلطة اللغة 54
سُلطة الغربة 59
سُلطة الإعاقة 62
سُلطة المشكلة 65
سُلطة المهنة 67
سُلطة الأول 71
سُلطة الحكي 73
سُلطة الخط 75
سلطة القناعات 81
سُلطة الحوار 90
سُلطة الهاتف البيولوجي 92
لماذا الآخر !؟ 94
لماذا الآخر؟ 95
أيُّ عَالَمٍ يسكُنك؟! 96
أول الدروس وأعظم الدروس 98
مراجع 100

أعمق حاجات الإنسان هي الخلق. الذهن الذي يحفظ أو ينقل أو يقلد يُصاب بالشلل إن فقد ماهيته أن يخلق ويبدع ويُصير. وأزمة الذهن العربي أنه فقد هذا بالضبط : قدرته على الخلق. لا أعني فقط قدرته على خلق عالمه "وتصميم " الدنيا التي يحيا فيها " بل وهو الأهم قدرته على تصميم نفسه على إعادة الصياغة وكل ذهن فقد قدرته على تصميم نفسه سيقوم غيره بتصميمه . سميت القدرة على إعادة تصميم الذات (السّلطة العليا).

تصدير

للذات ارتباط وثيق بالهندسة " إذ يصعب على المرء معرفة وإدراك الذات إلا بعد أن (يَتهَندَس) والهندسة لا تكون كذلك إذا خلت من الذات . وإلا فما هو قوس النصر في باريس ،أو ما هي الأهرامات في مصر إن لم تكن تزاوج الهندسة بالذات.

يجب إذن أن يكون لكل هندسة ذاتها ودلالتها ومعناها ،وإلا بقيت عبارة عن (خربشات) أو كتل حجرية تخلو من الإيحاء والدلالة ،فلا بد إذاً من ترتيب منطقي ومنسجم.

إن الهندسة بما هي فن بناء صرح ما ، تتطلب التناسق والقدرة على (بَؤوَرة) الإنتباه عليها أي سلطة عليا متمكنة منها. ذلك (التبؤور) يشكل التماس الأولي للحساسية الإنسانية مع العمل (المُهندس) سواء كان هذا العمل فنياً أم أدبياً أم ذاتياً روحياً نفسياً وهو الأخطر والأهم.

السلطة العليا هي امتلاك زمام الهندسة والهندسة هي إعطاء المجرد شكلاً هلامياً ، إنها تحقيق الصورة أو المفهوم الذي يقوم العقل الإنساني بتمييزه .ويقوم الفنان بتطوير نتاج العقل أمام أعيننا ،ويقدم لنا العمل في قالب مادي نستطيع رؤيته أو لمسه ،فنحس بالتالي ،بمتعة اللمس أو بروعة القراءة أو بعذوبة الإصغاء-إذا كان العمل موسيقياً.

إن الطفل في بداية تعلمه اللغوي ،لا يتلفظ إلا ببعض الكلمات المعزولة .لكن الكلمة التي يلفظها الطفل ، هي عبارة عن تكثيف لمجموعة أخرى من الكلمات

ذات التركيب القواعدي المحدد، وذات الدلالة المحددة . كلمات اكتسبها هذا الطفل من خلال محيطه.

لو بقينا زمناً طويلاً نحاول أن نكرر أمام طفلٍ ما كلمة صوتية مثل " "dodo

)بالفرنسية) والتي تعني (إذهب للنوم إذا كان الأب أو الأم هما صاحبا الأمر وأريد أن أنام ،إذا لفظها الطفل نفسه) فإن الطفل يفهم دلالة هذه الكلمة ويهندس نفسه ويتهندس ويبرمج على شكلها ومضمونها ،إذ لا بد له قبل ذلك من الخضوع لجملة من الأفعال والحركات والتشبيهات وما إلى ذلك . حينما نقول للطفل (دو دو)، أو حينما يقولها هو، فإنه بهذا يقوم بإرسال أو تثبيت كلمة تعنيه دلالتها فقط .وهي دلالة لا تظهر إلا عبر سلسلة ملفوظة أو مكتوبة بشكل صحيح .بمعنى آخر عبر مجموع مُهندس مثل " اذهب للنوم لأن وقته قد حان" أو " أريد أن أنام ..الخ ".

إن الكلمة الصوتية ((do doتشكل كلاً متماسكاً ذا شكل خاص وتعبير خاص .لكنها تشكل أيضاً مضموناً متكاملاً وبالنتيجة فإن كلمة من هذا النوع لا يمكن فهمها إلا في إطار ظروف لفظها ،ومن هنا نشأ التيار (الملفوظي) ENONCIATIONفي تحليل الحديث ،إنما ليس على صعيد طفل في مرحلة من السن كالتي للطفل الذي نتحدث عنه.

ليست الكلمة بديل الشيء ، متفقين في هذا مع السيد رومان جاكوبسون في هذا الخصوص ، والمعنى هو محصلة العلاقات التي تقيمها الكلمات فيما بينها ضمن كل عام متماسك ومنسجم وتلك هي الهندسة أما السّلطة العُليا فهي القدرة على

الهندسة وكل ما فينا وما حولنا يمكن أن يتغير ويعاد تصميمه وصياغته بإدراك تلك السلطة.

لن يتحقق إدراك الإنسان لماهية سلطته على ذاته ويتمكن من هندستها وإعادة تصميمه لنفسه إلا عندما يفهم ما هو الخلق وما هو التقليد وما هي سلطتهما عليه وكذلك سلطة الكاتلوج والمهنة واللغة والمشكلة والاسم وسلطة خطه أيضاً وإمكانياته البيولوجية والفسيولوجية وقناعاته وكيف يجددها ويغيرها ودوافع سلوكياته و ما إلى ذلك مما نذكره في هذا الكتاب، وحينها فقط سيكون هو صاحب السّلطة العليا على ذاته.

أمضيت 12 عاماً في تأليف هذا الكتاب والتفكير في محتوياته وبإذن الله أكون قد توفقت فيه وقدمت شيئاً يفيد القارئ..

سُلطة الخلق

و

سُلطة التقليد..!!؟

سُلطة الخلق

● إن أعمق حاجات الإنسان هي أن يخلق ويبدع ويُصيّر قال تعالى " فتبارك الله أحسن الخالقين "..

ما لا مراء فيه أن أزمة الذهن العربي ، عدا تقديس الأسلاف (atavism) وعبادة الماضي، واعتقاده بمقولة (لا جديد تحت الشمس) أنه فقد قدرته على الخلق، لا أعني فقط قدرته على خلق عالمه، وتصميم الدنيا التي يحيا فيها بل، وهو الأهم، قدرته على تصميم نفسه، على إعادة الصياغة، على أن يكون لديه جديد كل ليلة ، الذهن الذي يحفظ أو ينقل أو يقلد يصاب بالشلل إن فقد ماهيته أن يخلق ويبدع ويصير، ولا غرو من أن كل ذهن فقد قدرته على تصميم نفسه سيقوم غيره بتصميمه..

لم يكن دقيقاً ما قاله بورخيس عن الكتب ، من أن الناس في حقيقة الأمر يظلّون يتوارثون كتاباً واحداً بعناوين مختلفة وأن نصاً واحداً كتب مرّة واحدة وبات يتكرر من دون توقف..

ولكأني بزهير شاعر " الحكمة " يهمس في أُذن بورخيس حين قال منذ عصور:

ما أرانا نقول إلاّ معاراً أو معاداً من قولنا مكرورا

ولكأني بأبي عثمان الجاحظ لم يبتغ شيئاً سوى الرد على أولئك جميعاً حين قال : " ما على الناس من شيء أضر من قولهم ما ترك الأول للآخر شيئاً.. " وكذلك قول أبي عثمان المازني " لا ينفع المتقدم تقدمه إذا قصّر كما لا يضر المتأخر تأخره إذا أجاد.."

منذ عصور سحيقة والعرب تحديداً ما برحوا يرسفون في أغلال التقليد درجة أنهم فقدوا قدرتهم على الخلق والإبداع..

سُلطة التقليد

في القرن الثالث قبل الميلاد ألفّ أرسطو كتاباً عن الشعر ،وأرجأ انبثاق الشعر في الإنسان إلى غريزتين.. " غريزة التقليد " و "غريزة اللحن والنغم" فمن ساعدته ظروف حياته على تنمية هذا الاستعداد فاضت قريحته بالشعر..

وقبل ذاك قلّد قابيل الغراب في مواراته لسوءة أخيه، قال تعالى "فبعث الله غراباً يبحث في الأرض " وكلمة بعث لها معنيين في القرآن والسنة فتكون بمعنى بعث الموتى وإحيائهم يوم النشور وتكون بمعنى تكليف الرسل بمهمة وهذه كانت مهمة الغراب، تعليم قابيل الكيفية التي سيواري بها سوءة أخيه " ياويلتي أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي....." والمعنى أن الاستعداد الفطري المسبق لدى قابيل في التقليد والمحاكاة يؤكد أصالة التقليد وجذورها الراسخة في أعماق الإنسان..

- إن ظاهرة الإيمان بالأفكار الجاهزة المستنبطة سابقاً، دون تمحيص وحتى لمعرفةما إذا كانت صحيحة أم باطلة وذلك خشية أن تصيب الفرد مشقة كبيرة في عملية التفكير من جديد حول تلك المواضيع. تؤكد ما عبّر عنه الفيلسوف الألماني ديكارت وعن ذات الملاحظة حين قال عن نفسه "أنا أنساق من تلقاء نفسي ودون وعي مني إلى تيار آرائي القديمة، وأحاذر أن أصحو من غفوتي هذه خشية أن أجد اليقظة الشاقة التي تعقب هذه الراحة الهادئة " ما يدلل على أن قلة المفكرين في العالم الناشئة عن الصعوبة التي يقتضيها التفكير المركز..

ولا فرق في هذه النتيجة بين الخوف من التشكيك في أفكار تبناها الإنسان نفسه وبين ما تبناه العلماء قديماً أو حديثاً أو أملتها الظروف الاجتماعية أو البيئة الثقافية ذلك لاشتراكها جميعاً في جذر الخطأ النفسي الذي يتلخص في حب الراحة، والذي يدعو إلى تبني أفكار جاهزة ،وربما يكون حب الذات، واحترام العلماء يكون وراء هذه الظاهرة، إلا أنه لدى تحليل النفسيات يظهر أن هذه الجذور أصيلة في النفس البشرية ،ساعدته الجذور الأخرى أم لا..

و التقليد قد يوجد – دون وجود علاقة عاطفية بين المقلدِّ والمقلدَّ بل. بمجرد أن المقلدِّ ضعيف النفسية وغير مستعد للبحث بنفسه حول القضية أو الخلق والابتكار والابتداع فيتبع غيره في ذلك.

إن من تأخذهم هيبة البحث عن حقيقة معينة لا يستطيعون كشفها إذ أنهم حكموا على أنفسهم –سلفاً –بالعجز والفشل ،والذين تمتلكهم هيبة العلماء السابقين يستحيل عليهم فهم أي شيء جديد، إذ أنهم لا يؤمنون بأي اكتشاف ذاتي يتوصلون إليه والأجيال التي تعبد جيلاً سابقا،وتعتقد أنه وصل إلى قمة العقل والمعرفة ،تبقى هذه الأجيال – في أوحال الجهل لأنها تفقد الثقة بقدرتها على فهم أي شيء لم يفهمه ذلك الجيل السابق.

والثقة بالعقل لا تكفي،بل يجب أن يثق الإنسان بكامل قدراته ليستطيع استثمار عقله ذلك لأن ضغوط الحياة المادية تفقد الإنسان استقلاله في التفكير والسلوك وتفقده حريته في القرار..

والتقليد في الفن فن في حد ذاته وهو أول درجة من درجات سُلّم الإبداع رغم ذلك فالبراعة ليست في الدخول إلى عالم التقليد بل في القدرة على الخروج من دائرة التقليد وخلاص المُقلّد من هيمنة المُقلّد،أما أسوأ التقليد فالتقليد في الزندقة لأنها إذا رسخت في قلب إمرءٍ تقليداً أطالت جرأته واستغلق على أهل الجدل إفهامه. على حد قول أهل الفطن.

ولعل أنجع علاج للخلاص من التقليد هو المران والممارسة واكتساب الثقافة وإعمال الفكر، وعلى رأس ذلك كله وقبله منح الثقة بالنفس والإيمان بكامل قدراتها.

ولا نستغرب أن نجد على مستوى العقيدة أيضاً أن تكون حجة عبدة الأصنام والأوثان قديماً والآن وتعليلهم لعبادتهم بقولهم " هذا ماوجدنا عليه من سبقونا " أو " آباؤنا " وهذا ما أطلق عليه علماء الاجتماع بـ" البرهان الاجتماعي".

وتتجاوز مشكلة الصراع هذه بين الخلق والتقليد وما أطلق عليه البرهان الاجتماعي المجال الإبداعي الفني والأدبي إلى كافة مجالات التنمية في المجتمع فهاهو التقليد

والبرهان الاجتماعي يسيطر على الحياة الاقتصادية في الوطن العربي ويصيبها بالركود فبمجرد أن يفتتح أحدهم محلاً تجارياً أو يستثمر ماله في مشروع ينتشر خبر ريعه الوفير بين أوساط أرباب المال حتى يبادر هؤلاء الأخيرين باستثمار أموالهم في نفس المشروع بلا تمحيص أو تفكير أو إعمال نظر وهذا ينطبق على المشاريع الصغيرة والاستثمارات الكبيرة في حين أنهم لو منحوا أنفسهم فرصة التفكير في مشاريع نوعية لكونوا أسواق عالمية ووطنية تلبي احتياجات الناس وتوفر فرص عمل وتستوعب مخرجات التعليم الجامعي والمهني التي لم تجد فرصتها إلى حد اللحظة ما يدفع بعجلة التنمية إلى الأمام وهم في كل الأحوال مستفيدون بل وأيضاً مساهمين في الارتقاء بالإنسان وتنميته وبالأوطان أيضاً والأمر لا يحتاج إلى عمل اتفاقيات بين أرباب الأموال وبين الدولة لتحقيق هذا بل يتطلب الوعي فقط لدى هؤلاء المستثمرين بالمهمة المناطة بكل مستثمر ودوره في تحقيق التنمية المستدامة التي تحقق الرخاء والازدهار في المجتمعات..

التقليد كمفهوم معاصر..!؟

ثقافة التقليد عموماً وكمفهوم معاصر " Traditionalisation " هي ثقافة الجماعة والإجماع ،ثقافة الأمة ،ثقافة تعتبر نفسها (ومن ثمة الأمة التي هي تعبير عنها) نموذجاً ومثالاً ،وتعتبر كل جديد بدعة وضلالاً وخروجاً عن إجماع الأمة .

إنها ثقافة الصهر والانصهار المؤطرة لموقع الفرد ولدوره ولوعيه، لأحلامه ومتخيله حيث لا مجال لحرية أو لاستقلال الفرد.

ونحن في هذا العصر نشهد انتعاش ثقافة التقليد، ووعي التقليد بذاته ،بل تسخيره للكثير من المعطيات التقنية والتنظيمية والثقافية للحداثة في صراعه ضد مظاهر التحديث.

افترض أن الثقافة التقليدية المرتعشة والمغتناه ،بمكاسب الحداثة تطور وظيفتها في الصهر والضبط والمراقبة والعقاب وذلك من خلال العديد من الآليات :

1-الأمثلة (Idealization) والنمذجة للذات، ومقابلها شيطنة الآخر.

2- الإجماع والتأكيد على وحدة الأمة التي هي كلية إنصهارية لا تجتمع على ضلال. فالضلال فردي والصواب جماعي.

3- التخوين على المستوى السياسي والتكفير على المستوى العقدي ،والاتهام بالعمالة الحضارية على المستوى الثقافي والفكري.

4- رفض التجديد والإبداع واعتباره بدعة وابتداعاً، أي خروج عن الجادة وعن المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك ضال.

5- تحديد سقف واطئ لحرية الضمير أو الوعي أو حرية الاعتقاد، إذ لا يحق لأيٍ كان المساءلة أو النقد.

هذه البنية العقدية هي نواة الثقافة العربية، بل إن هذه البنية تتحكم في كل البنيات الثقافية المشتقة وتوجهها، كمثال على ذلك نذكر بأن البنيات السياسية العصرية ذاتها ،التي من المفترض أنها تنطلق من بنية فكرية مغايرة تقوم على مبدأ تعدد القيم والمرجعيات والرؤى، تعيد إلى درجة كبيرة إنتاج هذه البنية العقدية التقليدية حيث تفرض الأنظمة السياسية العصرية نوعاً من الإجماع الداخلي ،ولا تسمح حتى بوجود تيارات رأي داخل صفوفها، بل إن البنية التنظيمية لهذه الأحزاب تكاد تكون بنية قدسية تراثية، وكثيراً ما تطغى اللغة الدينية ممثلة في مصطلحات الحلال والحرام في الخطاب السياسي الرسمي أو الحزبي..

معركة قديمة !!

وفي نقاش مع أحد الأصوليين أكد هذا الأخير أن كلمة (إبداع) وكلمة (خلق) ليستا من صفة الإنسان بل من صفات الله فهو وحده (خالق) و(مبدع) وليس بإمكان الإنسان أن يصنع شيئاً من لا شيء.

وقال أيضاً :إن مصطلح (الإبداع) لم يرد في الفكر الإسلامي الكلاسيكي فهو نتاج الحياة المعاصرة ومستورد من الغرب !!.

هنا أيضاً يستلب الإنسان من إمكاناته وقدراته ويهمّش، أي يغترب عن ذاته، بيد أن المعركة بين الجديد والقديم أو بين التقليد والخلق كانت دائماً قوة فاعلة في التاريخ ،قد تحتدم في عصر أكثر من غيره ولكنها لا تتوقف كلياً.

وفي المجتمع العربي هناك قوى تبدع وتجدد وتغير، كما أن هناك قوى تتبع وتقلد وتحافظ مكررة الأمس ،هذا ما نجده في مختلف المجالات الثقافية ،كما نجده في السياسة وغيرها..

ومن الواضح أن القوى التي تبدع غير ما عرفه الماضي ليست غريبة عن التراث العربي ،وكانت في مختلف العصور في صراع مع القوى التقليدية المضادة..

لذلك نعتبر أن قوى التجديد كانت هي ونتاجها دائماً جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العربية.. وبهذا المعنى الإبداع أصيل كما الإتباع ،والعرب في مختلف أزمنتهم انقسموا بين مؤيدين للاتجاه التقليدي ومؤيدين للاتجاه التجديدي في إطار الصراع العام نتيجة للتناقضات الداخلية والخارجية.

بذلك نجد أن الثقافة العربية ليست جوهرياً (ثقافة تقليدية) بل هي ثقافة صراع بين القديم والجديد ،ففي كل عصر من العصور العربية هناك نظام سائد يمثل مصالح وقيم طبقات وجماعات محرومة ، بمعنى أن الثقافة العربية تتمحور حول الصراع بين قوى متناقضة وليس حول الماضي أو حول المستقبل أو حول طرف من أطراف الصراع..

قد يغلب منحى على آخر في زمن ما (وقد يكون منحى الإتباع أو الإبداع) ولكن الصراع هو المحور دائماً..

وكما أن هناك من يقيسون الحاضر والمستقبل على الماضي،هناك من يأخذون بهاجس الحداثة الذي يقوم على إدانة التقليد أو المحاكاة ،ورفض النسج على منوال الأقدمين والتوكيد على التفرد والسبق ،وعلى الابتكار.

والثقافة العامة هي معتقدات هؤلاء وأولئك متصارعة ،لذلك لا يجوز الكلام عن ذهنية عربية واحدة بل هناك ذهنيات عربية متناقضة وفي حالة مواجهه مما يدل على خطأ الاستنتاج بأن عبارات كالإبداع وإعادة النظر والحداثة لا تعني للمجتمع العربي إلا خروجاً على الأصل ولذلك أيضاً نعتبر الثقافة العربية ثقافة متحولة باستمرار والثابت فيها هو الصراع نفسه ،وليس التقليد أو الإبداع والخلق بحد ذاته...

سُلطة الاسم وسُلطة السياق وسُلطة تحرير الذات مما يستعمرها

سُلطة الاسم

- يرى النحاة أن كلمة" أسم"، ثلاثية الأصل، وأن همزة الوصل فيها بدلاً من لام الكلمة المحذوفة، والأصل (سمو). وهذا رأي البصريين.

ويرى الكوفيون أنها بدل من فاء الكلمة المحذوفة، والأصل (وسم).

لكن مقارنة اللغات السامية تدل على أن هذه الكلمة مع كلمات أخرى كثيرة، مثل يد، ودم، ذات أصل ثنائي.

فكلمة أسم جاءت :

في العبرية : شِمْ shem

وفي الآرامية : شَماَ shma والألف الأخيرة فيها أداة التعريف.

وفي الحبشية : سم sem

وفي الأكادية : شمْ shumu

وهذه المقارنة تدل على أن ما ذهب إليه النحاة القدامى، لا يمت إلى الصواب، وذلك لجهلهم اللغات السامية.

* سلطة الاسم

- تُعتبر الأسماء واختيارها من أصعب ما يواجه الكاتب الروائي والقصصي والمسرحي عموماً، ومثله الناقد الذي قد يضطر أحياناً إلى إغفال مسألة تناول الأسماء أو التعرض لها بالشرح والتحليل والتفسير في النص وعلة اختيارها لعدة أسباب، من ذلك عدم وجود مغزى للكاتب في اختيارها، أي أن هذا الأخير كان عشوائياً، ومنها حقيقة الأسماء وواقعيتها، بيد أن ثمة أعمال أدبية كثيرة كانت صناعة واختيار الأسماء فيها لها حساباتها الخاصة والدقيقة، ولها أهدافها وجذورها التي تضرب في عمق القضايا النفسية والفلسفية للذات الإنسانية، ولعل أكبر تجسيد لهذا ومما نأخذه كمسوغات وبراهين لما نرمي إليه حكايات "ألف ليلة وليلة " التي رغم كونها مجهولة الهوية بيد أنّ عظمة هويتها تقترن بالدقة في صنع وحبك التفاصيل الجوهرية للعلاقات الإنسانية، والاحتراف والدقة والبراعة في رسم الشخصيات، والمعرفة العميقة بخبايا النفس البشرية وما تحمله من تناقضات، ولعل مما يدهشنا فيها وهو ما نحن بصدده قضية اختيار " الأسماء " والمهارة في صناعتها لتتوائم مع مقتضى الحال، إذ كانت وفق معايير وقواعد نفسية دقيقة، تُجسّد السلطة التي يمتلكها الاسم وتتحكم في حياة الإنسان وطبيعتها، أيضاً تصف كيف يشارك الاسم في رسم ملامح الشخصية الإنسانية وتشكيل ملامحها في إطار سياق عام ومنظومة تحكي براعة الصانع وخبرة البنّاء في رصف الحجر، وتصف مشاركة الاسم في تشكيل التركيبة السُلطة والفسيولوجية، من ذلك وكمثال شخصية "علي الزئبق"، هذه الشخصية تتسم طيلة الحكايا التي تدور في فلكها وضمنها بصفة الزئبق الذي يستحيل إمساكه مثلما يستحيل إمساك علي الزئبق أو القبض عليه، كذلك شخصية " النحّاس " والذي يقترن بالنحس طيلة الحكاية وفي أي عمل كان يقوم به، وبالمثل نجد شخصية "باسم الحداد" والتي تدور حكايتها في فلك "الحِداد" وهو حداد الموت "ثلاثة أيام "، أما الأسم الأول "باسم " فعبر عن القصد من الحداد ويستهل به كقولنا "بسم الله " ولكن بدون التضييق على ألف الوصل، وهذا المعنى للاسم يُجسد المعنى الإجمالي من الحكاية وفلك موضوعها، فباسم الذي كان عاملاً على باب الله، ليس له أُسرة يُعيلها، كان يخرج من مسكنه

صباحاً لكسب ما يحتاجه في سبيل إحياء ليلته، إلى أن يزوره أمير البلاد ووزيره متنكرين بعد أن يُغريهما مشهد مسكنه إذ كان مبعث خروجهما بهذه الأزياء وهذا التنكر البحث عن المتعة واللهو والأنس والمؤانسة، فيأتي مشهد مسكنه بنوافذه المشرعة التي ينبعث منها الضوء، وصوته الذي يُدندن بهِ، فيُشاركاه أمسيته، ويأخذ هو في وصف طريقة عيشته لهما، والتي يستسيغها الأمير ويروقه الالتفات إليها، لغرابتها وسذاجتها والطرفة التي تضج بها، يتبسم الأمير من ثمّ وقد راقه الأمر وانتابته رغبة عارمة في كسب شيءٍ من المتعة مع باسم المسكين الذي لم يعلم ما دار بخلد الأمير وما خبئه له القدر..!!

في صباح اليوم التالي يذهب باسم ليعمل كعادته، لكنه يفاجأ بالفرمان الحدادي الذي أعلنه الأمير في الجهة التي يكسب رزقهُ منها، ولأن باسم رجلٌ صلب فقد بدّل مهنته بكفاح، وبنفس الطريقة يكسب رزقهُ ويقول " سأُحيي ليلتي "، ثم يعود إلى مسكنهِ ليُحيي ليلته، ويزوره الأمير ووزيره متنكرين كما الليلة الفائتة، ويشاركاه أمسيته، ويسترسلا في الحديث معه، ويستدرجانهِ من حيث لا يدري ولا يحسب له حساباً، فيفصح لهما عما فعله في ذلك اليوم وعن المهنة التي كسب منها رزقهُ، وبنفس المنوال يخرج في صباح اليوم التالي إلى مهنته الجديدة بيد أنه يُفاجأ بفرمانٍ حدادي جديد في هذه المهنة الجديدة، ويضطر بكفاح إلى البحث عن مهنة جديدة في سبيل كسب ما يحتاجه لإحياء ليلته... وهكذا تستمر الحكاية حتى يصل الأمر بباسم جراء الفرمانات الحدادية المتتابعة إلى الانضمام إلى صفوف عاملي البلاط وحرسه، والتي تجعل الأمير يضحك من أعماقهِ كما تجعله يعجب بشدة بكفاح باسم وصلابة عزيمته وعدم يأسه فيكافأهُ بسخاء ويُجزلهُ العطاء...وتنتهي الحكاية...

وعليه ومن ذلك نكتشف أن السلطة التي كانت تتحكم في مسار الحكاية هذه والحكايات جميعاً وما دار في فلكها والطبيعة الجوهرية للشخصيات أيضاً كلها كانت مرهونة بالاسم وسُلطته، ولعل أهم النظريات التي تتناول هذه التقنية بدقة نظريات نشأة اللغة

للعالم العربي أبو الفتح عثمان بن جني التي أوردها في كتابه الخصائص وأفرد لها بابين الأول " تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني " والآخر " إمساس الألفاظ أشباه المعاني "، كذلك نجد هذا النوع من التقنيات ضمن ما ميزه ريفاتير من أنماط الاشتقاق المزدوج الخاص بالأسماء والعناوين وتقنيتها كما في كتاب " قراءة في قصيدة النثر "لسوزان برناد ويعددها :

1- اشتقاق صريح، ولكنه يُرد ضمنياً إلى اشتقاق آخر، يُثير مراجع صورية، ومعانٍ ضمنية توحيها الكلمة، لا وجود لها في النص، بتعبير أدق" عنوان النص يشير إلى غير ما يحتويه النص".

2- يمكن وضع اشتقاقين معاً في النص ولكنهما متنافران دلالياً إلى حدٍ ما ومثال ذلك نص "سطوع القمر" لكلوديل الذي عالج موضوعاً هو القمر مع أخبار خاصة بالشمس.

3- اشتقاقان حاضران في النص- في الوقت ذاته- يتناقضان على الصعيد الأسلوبي.

- ومن الأعمال الأدبية والروائية العالمية التي تجسد هذه الفكرة " رواية الجبل الخامس " للروائي البرازيلي " باولو كويلهو " الذي يشتهر باستغراقهِ العميق في ثقافة الشرق وروحانياته، مستلهماً منها موضوعات رواياته غائصاً في سراديب النفس البشرية، محاولاً إعطائها بعدها الحضاري ورابطاً لها بمتغيرات العصر وتقنياته ومتطلباته، كما يتجسد هذا في روايتيه " الخيميائي " و"حاج كومبوستيلا" و " الظاهر" وغيرها، وفي رواية " الجبل الخامس" تطرق كويلهو في تفاصيل الجزئية ما قبل الأخيرة تحديداً وهو من أكثر ما يُثير الإعجاب عندما يشرع بطل الرواية في بناء المدينة المدمرة من الأعداء الغزاة وعندما تصبح المدينة مجرد أطلال وخرائب فيشرع بطل الرواية إلى إعادة إعمارها مع من تبقى معه من الأطفال

والنساء والشيوخ ومحاولةً منه لبث روح الحماس في قلوب تلك الثلة الباقية من أجل الثبات من اجل حبهم للمدينة، فيكون طلبه إليهم بأن يكتشف كل فردٍ منهم في نفسه أسماً يتسمى بهِ غير حروف أسمه المدونة في شهادة ميلاده المسمى بها من قبل والديه، يتصف بخروجه عن نطاق الحياة التقليدية الرتيبة ومن ثم يصبح هدفاً بحد ذاته يتجاوز به الفرد مرحلة اليأس والإحباط ويعبر به عن طموحه ويثبت من خلاله كينونته ووجوده كعنصر فاعل في هذه الحياة وأيضاً استحقاقه وجداربة لأن يعيشها، كما أّنه يُعرِّف بوظيفتهِ الأساسية في الحياة ويصف خطته بها وبرنامجه وأفكاره وتطلعاته فيها، وإيجاد ذاته من خلال موهبة أو علم أو حرفة تمضي بحياته قدماً في ركب الحضارة والبناء والمعامرة، متحدّياً بهذا الاسم كل صعوبة قد تواجهه وكل معيق ما يمنحه الاستمرار في السير على الدرب والمنهج الذي اختاره له هذا الاسم الذي اكتشفه بأعماقه..!!

كذلك نجد في رواية " من أنت أيها الملاك" للأديب والروائي العربي الكبير " إبراهيم الكوني" ما يتمثل الفكرة النفسية والفلسفية وأبعادها المحمولة على أكف الشقاء والإضناء في رحلة البحث عن الاسم وسلطته برمزية تحيلنا إلى العوالم التي تختزل ذلك الصراع القائم بين الأجيال وحكاية الصراع الأبدية بينها وبين الحاضر والماضي والمستقبل..

- وعلى ذلك فليس ثمة غرابة أن نجد الطب النفسي الحديث يلتزم في تحليلاته للحالات التي يُعالجها ويتناول طبيعة تركيبتها السُلطة والفسيولوجية بالدراسة والبحث والتنقيب " الاسم " محوراً ومنطلقاً لذلك، إذ أن الفكرة في الأساس قديمة والتزامه هذا قد يكون متأخراً نوعاً ما، فالرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وفي المفاوضات التي تجري بينه وبين قريش في "صلح الحديبية" وبعد فشل الوفد الأول والوفد الثاني من وفود قريش في الوصول إلى حل، يأتي الوفد الثالث بزعامة سهيل بن عمر" وبمجرد رؤية الرسول عليه الصلاة والسلام له قادماً حتى يقول لأصحابه:" سهل الله

أمركم"، وينتهى مسير النبي عليه الصلاة والسلام إلى بين جبلين فيسأل عن اسمهما فيقال له" مخزٍ وفاضح"، فيعدل عن المشي بينهما.

- وروى البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده قال :أتيت النبي عليه الصلاة والسلام فقال :"ما اسمك؟"، قلت : حزن " والحزونة " هي "الغلظة" فقال عليه الصلاة والسلام " بل أنت سهل" قال : لا أغير أسماً سمانيه أبي..!!، قال سعيد بن المسيب: فما زالت تلك الحزونة فينا!.

- وأُتي النبي عليه الصلاة والسلام بغلام فقال : " ما سميتم هذا ؟" قالوا : سميناه السائب" ! فقال عليه الصلاة والسلام :" لا تسموه السائب ولكن عبد الله " قال فغلبوا على أسمه – أي على أسم السائب – فلم يمت حتى ذهب عقلهُ، رواه الترمذي.

- وقال عليه الصلاة والسلام :" أسلم سلمها الله، وغفار غفر الله لها، وعصية عصت الله " رواه مسلم، وعندما نزل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكربلاء، سأل عن أسمها، فقيل له " كربلاء" فقال :" كربٌ وبلاء". فكان مثلما قال رضي الله عنه..!!

- وقال عوانة بن الحكم : لما دُعي عبد الله بن الزبير إلى نفسه قام عبد الله بن مطيع ليبايع فقبض عبد الله يده حتى قام أخوه مصعب فبايعه، فقال الناس : أبى أن يبايع ابن مطيع وبايع مصعباً، ليجدنّ في أمرهِ صعوبة فكان كما قالوا..!!

- وفي حرب الحجاج بن يوسف لابن الأشعث نزل الحجاج في " دير قرة " ونزل عبد الرحمن بن الأشعث في " دير الجماجم" فقال الحجاج: استقر الأمر في يدي وتجمجم به أمره، والله لأقتلنه.. فكان مثلما قال..!

- والإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام غير بمجيئهِ مفاهيم وأسماء كثيرة بدعوى المعاني الفاسدة والصفات الذميمة والقبيحة التي تحملها، كما يذكر ذلك أحمد بن فارس في كتابه " الصاحبي في اللغة "، ومن ذلك أنه غير اسم "شهاب" إلى " هشام "، وسمى " حرباً " سلماً"، وسمى " المضطجع" "المنبعث"، و"عاصية " بجميلة"، وأصرم " بـ" زرعة "، وغير اسم أرض " عفرة " بـ " خضرة" و" شعب الضلالة" بـ" شعب الهداية " و"بنو الزنية" بـ"بنو الرشدة" وغير اسم " العاص" و"عزير" و"غفلة " و"شيطان" و"الحكم" و"غراب" !..وغير ذلك كثير..

- كل هذا يحثنا على التروي والتفكير المستفيض قبل اختيار الاسم وتسمية المسمى، كما يحدد ما علينا من مهام تبعاً لما تعنيه أسماؤنا، وما أحوجنا إلى أسماء تحدد الرغبة الجوهرية والطموح الذي يسكننا ونرغب ونسعى إلى تحقيقه وتعبر عن الإرادة التي نسعى إلى الإمساك بزمامها لتحقيق كينونتنا، وإثبات وجودنا، والقاعدة قياسية مطردة بيد أن لها شذوذها شأنها شأن أي قاعدة أخرى، لذلك فالتعميم بشـأنها سيكون مجحفاً وجائراً، وغير منصف أيضاً.

سُلطة السياق

* المسألة الثانية : قضية السياق التي لا تقل أهميةً في سلطتها عن سلطة الاسم وهي سلطة نفسية وفلسفية وروحية، نستطيع إدراجها ضمن العلوم الإنسانية النفسية الحديثة المضطلعة في برمجة الذات كعلم " البرمجة اللغوية العصبية " والذي هو أحد فروع علم النفس الحديثة، التي أُسست بنهاية الثمانينات، كعلم يبحث في آفاق التنمية البشرية وآفاق السلوكيات الإنسانية وبرمجتها، ومن ذلك ما ذُكر عن الشاعر إبراهيم بن خفاجة في كتاب " تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين" لإحسان عباس أنه

كان يغادر أحياناً منزله بجزيرة شقر وحيداً، ويمضي حتى إذا صار بين جبلين هناك وقف يصيح " يا إبراهيم تموت !" فيردد الصدى كلماته، ثم يعيدها ويعود الصدى إلى ترديدها، ويظل على هذه الحال حتى يخرُّ مغشياً عليه...

وثمة حكاية أخرى مؤداها أن ثمة رجل حُكم عليه بالإعدام وكان هارباً من وجه العدالة وطريداً للشرطة وفيما كان يبحث عن مكانٍ للاختباء فيه وجد قطاراً فاستقله ومن بين مقطوراته لم يجد غير الثلاجة مكاناً للاختباء فيه، وهناك ظل يردد على نفسه عبارة واحدة هي " أنا سأموت...أنا سأتجمد من البرد " " أنا سأموت...أنا سأتجمد من البرد " وحتى جاء الصباح ليجدوا الرجل ميتاً، وحين يقوم فريق الطب الجنائي بتشريح الجثة يجد أن جميع أعصاب الرجل قد تجمدت وأن سبب وفاته هو شدة البرد...!!

ليس المهم كيف مات ذلك الرجل لكن المهم هو أن ثلاجة القطار كانت معطلة أصلاً...!!

إن الحاصل هنا يجسد ويرتبط مطلقاً بسلطة السياق كما في قصة إبراهيم بن خفاجة، وهي عينها سلطة الاسم، بيد أن سلطة السياق وما تعنيه تندرج ضمن " البرمجة اللغوية العصبية " الخاصة بالإنسان وسلوكياته، والفكرة قديمة قِدم فكرة الاسم وما لها من سلطة، بيد أن العرب قديماً عرفوها معنىً وجهلوها أسماً، شأنهم في ذلك شأن علوم كثيرة، وقد عرفت قديماً بـ" الكذب على النفس" ومما يؤكد ذلك قول لبيد بن أي ربيعة في معلقته :

" واكذب النفس إذا حدّثتها / إن صدق النفس يُزري بالأمل "

ومثل ذلك قول نافع بن لقيط :

" وإذا صدقت النفس لم تترك لها / أملاً ويأمل ما اشتهى المكذوبُ"

وجاء في الأثر عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله:" إذا حّدثت النفس خالياً فاكذبها " أي إذا اختليت بنفسك فاكذب عليها حتى لا تثبط من عزيمتها، فإذا حدثت نفسك بإنك بلغت قمة النجاح فهذا مؤذنٌ بالسقوط لأن ليس بعد القمة سوى الهاوية، وإذا كنت فاشلاً وحدثت نفسك بإنك إنسانٌ ناجح فإنك ناجح وستنجح فقط وببساطة لأن "حياة الناجحين مسلسل من الفشل " وأيضاً لأن قولك هذا يتحول إلى سلوكيات وأفعال على الواقع بمعنى أنه يهندس حياتك ويُصيغُ عالمك ويبرمج ذاتك ويمنحك الأمل والنجاح، وقد أُطلِقَ على هذا في علم المنطق بـــ" الخداع الذاتي"، وفي الفلسفة كما سماه الفيلسوف الفرنسي " جان بول سارتر" بـــ" خداع النفس" "self deception" و"الإيحاء الذاتي " في علم النفس، وثمة مؤلَفْ غربي صدر حديثاً بعنوان " the secret" "السر" وهو يعبر ويتناول قضية السياق وسلطته في خضم الحديث عن سر العظمة وأسرار العظماء في التاريخ وما كان وراء عظمتهم، هذا السر كما يصفه الكتاب كان مجرد أفكار، والأفكار كالمغناطيس، تجذب الخير وتجذب الشر، تجذب السعادة وتجذب الشقاء، تجذب الفرح والسرور وتجذب الحزن، تجذب العظمة وتجذب الخيبة، وعليه فإن تفكير الإنسان في الخير يحُدث الخير وبالمثل تفكيره في الشر يجذب الشر، ولبوذا قولٌ يختزل فيه كل هذا وهو :" حياتك من صنع أفكارك"، وكذلك :" نحن ما نفكر فيه، وكل ما فينا ينبع من أفكارنا، وبأفكارنا نصنع عالمنا "، فإذا رُمت وفكرت في شيء فكن كما قال الشاعر : " إذا ما كنت في شرفٍ مرومٍ/ فلا تقنع بما دون النجومِ"

فإن فكرت في أنك عظيم أو في أنك ستصبح عظيم ورددت الفكرة على ذاتك، فهذه عظمة بحد ذاتها، لأنها تقتضي الكثير من الشجاعة وجرأتك في هذا التفكير هي دليل عظمتك، حتى ولو لم يرى ذلك الآخرون، سببٌ آخر هو أن إيمانك بما تفكر فيه وبما تود أن تكونه وتردده دوماً على ذاتك يصبح بلا شعور وتلقائياً رسائل إلى العقل

الباطن، تتحول من ثمّ، بوعي وبدون وعي، إلى سيطرة مطلقة متحكمة في كل أفعالك وسلوكياتك، فتكون هذه الأخيرة تمثيلاً لما يدور بخلدك وبما تفكر فيه، وتذكر فيما يخص العظمة أن الأمم لا تنجب العظماء إلا مرغمة، فإن أردت أن تصبح عظيماً فيجب عليك سلفاً أن تتغلب على أمتك جمعاء..، من ذلك أيضاً أن نابليون عرُف بأنه كان يقول دائماً ويردد على نفسه " فليُعطنا الله المجد وليأخذ عنّا راحة البال " ليتحقق قوله هذا من ثم ويُعطى المجد ويُسلب راحة البال فيموت كسيحاً معزولاً عن العالمين..

ومن قبيل ضرب الأمثلة على ما نحن بصدده، ومن خلال ما لمسته بنفسي، ما قد تُفكر فيه المرأة أحياناً وعندما يتعثر حظها أو يتأخر في الاقتران وإيجاد رجلٍ يناسبها، ما يُلزمها بتعبيرٍ نفساني بالتعويض " compensation"، أي التعويض ببدائل أخرى تشبع من خلالها " الأنيموس " التي تسكنها وهي الحس والجانب الذكوري الموجود داخل كل أنثى ويقابله " الأنيما" لدى الرجل، ويتم ذلك من خلال الدراسة أو العمل، وما إلى ذلك، وبالبدائل تستمر الحياة.

إن ما لا تعلمه المرأة وتجهله أن أفكارها هي سبب تعثر حظها وتأخرهِ، وكذلك خيبة أملها في إيجاد ما يناسبها، ببساطة لأن نموذج الرجل الذي تفكر فيه سيكون مانعاً ومعيقاً لحريتها، وحارماً لها من العمل والدراسة والتواصل مع الآخرين، أو بصفة عامة وبتعبير أبلغ " رجل تقليدي متزمت"، وهذا التفكير وهذه الفكرة التي ترددها بصفة دائمة على ذاتها، هي السبب في إجهاض رغبتها وإثباط عزيمتها حول إيجاد الرجل المناسب الذي لا يفكر بهذه الطريقة " رجل عصري متحضر"، فالخوف الذي يسيطر عليها هو نتيجة طبيعية لما تفكر فيه، وعائقاً نفسياً أمام إرادتها ورغبتها، فيكون تعويضها ببدائل أخرى وإنشغالها مجرد إنشغال لمجرد الإنشغال وليس محاولةً في خلق حالة أخرى مغايرة..!!

في حين أنها لو فكرت بإيجابية أو على الأقل كانت مؤمنة بما تفكر فيه وتفعله وتنادي به وتذود عنه وتطالب به من حرية المرأة ومساواتها بالرجل، فإيمانها هذا وصدقها فإن ما سيكون في الواقع نتيجة طبيعية لما تفكر فيه، أي أنها ستجد الرجل المتحضر والعصري، الذي يحترم المرأة ويصونها ويقدّس حقوقها، رجل يكون تحقق وجوده نتيجة طبيعية للإيمان بتلك الأفكار ومرهونٌ بمصداقيتها في ما تقوم به وتمثله برأيها أمام الآخرين... وعندما يصبح الأمر بهذه الصورة فإن وجود هذا النموذج من الرجل المتحضر سيكون نتيجة طبيعية لتلك الأفكار التي تجذبه وتوجده باعتبارها أفكاراً مغناطيسية، وهذه برمجة لغوية عصبية، تعبر عن السلطة المطلقة للسياق الفكري وتجسد سلطة الفكرة في الذهن وفاعليتها على الواقع، وقد قال الفنان العالمي " بيكاسو" :" أنا لا أبحث أنا أجد "، أي أنه يكفي الإنسان ليجد ما يريده عوضاً عن البحث عنه التفكير فيه، وكما أسلفنا فإن الأفكار كالمغناطيس التي تجذب ما نفكر فيه وتحققه على الواقع..وهذا التفكير وهذا الاعتقاد المطلق والصدق فيها يشبه في تفاصيله مسألة العقيدة، في عالم القناعات، وهي عقيدة بمعنى أدق لأنك إن لم تكن مؤمناً بما تفكر فيه فإن ذلك يُبطل تحققه على الواقع، ولأجل ذلك ليس ثمة غرابة أن نجد في مسألة العلاج والمرض مثلاً، والمشاعر والأحاسيس كالخوف والأمن والشجاعة والجبن والقلق والطمأنينة، وما إليه من الضديات من المشاعر، يقول بوذا تعبيراً عن هذا :" إن الإنسان لا يصل إلى العقل الخالص والحقيقة الخالصة إلا عندما يُدرك أن كل ما في هذه الحياة مجرد وهم."!! نعم وبالفعل الحياة وهمٌ كبير، ولندرك ذلك نذكر قول المتنبي :

" وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى / وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا "

وأيضاً قول الفيلسوف العبد " إيبكتيتوس" :" ليست الأشياء في ذاتها خيراً أو شراً، وإنما يخيف الإنسان منها هو أفكارهُ وتصوراتهُ عنها " وثمة تجربة طبية أجريت، وتمثل فتحاً كبيراً في هذا المجال بجامعة هارفارد الأمريكية، للطبيب "هنري بيشر"

على مجموعة من طلبة الطب، عددهم مائة طالب، حيث أعطى 5. منهم كبسولات حمراء وهي عبارة عن منشط هائل " باربيتورات" وأعطى النصف الآخر منهم كبسولات زرقاء وهي عبارة عن مهدئ هائل " إمفيتامين" ثم قام بتغيير محتوى الكبسولات فصار محتوى الكبسولات الحمراء هو المهدئ والكبسولات الزرقاء صار محتواها المنشط، وكانت النتيجة مذهلة حقاً فبعد أن تناولها الطلاب أدت نفس الاعتقاد المسبق في أذهانهم عنها وليس ما احتوته الكبسولات بعد تغيير محتواها، بمعنى أنهم لم يُعطوا دواءً غُفلاً ليس له تأثير، بيد أن السلطة للقناعات والاعتقاد المسبق لديهم كان أقوى من المفعول الكيميائي للعقار نفسه..!!؟

مثل ذلك وصفة " البلاسيبو" الطبية التي يصفها الطبيب لمرضى الجهل والخوف والتوهم المرضي، والبلاسيبو مجرد أقراص سكر تشبه في شكلها الحبوب الدوائية الأخرى، إلا أنها لا تحتوي على أي تركيبة دوائية خلا مذاق السكر..!

وفي المجتمعات النامية ومما نلمسه فيها كمثال آخر تصوراتها عن الطب وعن الخدمة الطبية التي تُقدم لهم في بلدانهم هذه من حيث أنها رديئة، وأن المريض بسفرهِ إلى البلدان المتقدمة سيجد العناية الأفضل، والعلاج الفعال والخدمة الراقية والمتطورة، وهناك سيتحقق الشفاء..!! وبهذه القناعة تُبدد الأموال ويتكبد الإنسان المشقة والعناء في سبيل تسويغ سفرهِ وهناك في واقع الأمر، أي في البلدان المتحضرة، لا يبلغ ولا يوازي حجم ما يُقدم لهم من رعاية وعناية وخدمة طبية مقارنةً بما قُدِّم لهم في بلدانهم ولا حتى ما نسبته 5.% بيد أن قناعاتهم واعتقادهم وعقدة الأجنبي التي تسكنهم والأفكار التي تدور بخلدهم وتتداولها الألسن بسبب نظرية علم الاجتماع " البرهان الاجتماعي" التي تسيطر على النظرة العامة للناس حول أي شيء وعن كل شيء وما يعنيه جودةً أو رداءةً وإيجاباً وسلباً واستساغةً ورفضاً، كما تتحكم بكل شيء وبأي شيء ونظرة الناس إليه وبشكل مذهل..!!

سُلطة تحرير الذات مما يستعمرها

لعل مما يجدر بنا الالتفات إليه بهذا السياق رسالة القديس الثائر " أرنستو تشي جيفارا" التي ظل يرددها ويحمل همها على عاتقه منذ ابتداء الدرب وحتى نهاية الرحلة، وهي تخليص الذات من مخاوفها ومما يحدق بها ويستعمرها ومما تشعر به..، ولمن لا يعرف فقد كان جيفارا مصاباً " بالربو" وأول ما فعله لقاء ذلك هو أن تحرر من مرضه ولكن ليس بالعقاقير ولكن ببدائل أخرى أهمها أفكاره وقناعاته، وحين نعطف على نهاية المطاف وآخر الرحلة، وحين يُلقى القبض عليه من قبل القوات الأمريكية، بعد أن يشي به صديقه الخائن والمقابل حفنةً من الدولارات، يقول وقد حانت ساعة الموت، يقول لقاتله، والذي تجمدت أعصابه أمام هذا الرجل الذي دوخ العالم ودوّخ البلاد والعباد، ورغم انه مكبلٌ بالأغلال والقيود، إلا أن قاتله كان عاجزاً حتى عن ضغط زناد بندقيته، ليقول له جيفارا مُجسداً نُبل رسالته وهمها الذي يقع على عاتقه منذ بدء المسير، ورغم أنها لحظة موته إلا أنه كان متحرراً من أي خوف، معبراً عن إيمانه المطلق وصدقه في كل ما نادى به وفعله ويفكر فيه، يقول له : " أقتلني لا تخف..... أنا مجرد رجل" فكان يريد تحرير قاتله من خوفهِ، ولو لم يكن إدراك جيفارا عندما نترجم سلوكه، لو لم يكن إيمانه بأن الأسير لمخاوفهِ مُنوماً لما صنع صنيعهُ ولما فعل فعله، وعلى ذلك فإن العالم كله منوماً، وفي أمس الحاجة إلى من يوقضه ويحررهُ من مخاوفه ومعتقداته الزائفة، وسباتِه الذي يغُطُ فيهِ، يحرره من الأوهام والأباطيل التي صاغت عقليته وحجمت بصيرته، يحررهُ مما يستعمرهُ سواءً كان بشراً أو مرضاً أو مشاعراً أو أفكاراً..

- لا ننسى كذلك الفكرة الجوهرية لفيلم "الماتريكس" " المصفوفة" والتي نادت بأنه قد تجد من يُرشدك إلى الطريق، بيد أن المحال أن يأتي معك، في حال لم تكن مؤمناً بأنك تريد الذهاب إلى حيث الحقيقة، وتلك الحقيقة تقتضي أن تُسبل جفنيك على

ما أنت مؤمنٌ به وآمنت ورغبت في أن تكونه حاضراً ومستقبلاً، ثم لتتجاوز بإيمانك هذا كل ما قد يعترضك من معوقات وصعاب، إلا انك ستصل في النهاية، وبنفسك، وبأفكارك، وبما رغبت وآمنت في أنك تريد أن تكونه، وليس بمعية احد...!! ومثلما عبّر الشاعر روبرت جريفز :

"تجمع الخبراء في صفوفٍ متراصة

ليملأوا القاعة الهائلة

ولكن من بين كل هؤلاء

لا يوجد غير شخصٍ واحدٍ يعرف

وهو الرجل الذي يُصارع الثور.....!!

سُلطة الكاتلوج

- لم تكن العظمة في شخصية أديسون تكمن في اختراعه للمصباح كما قد يخال للبعض بل وهو الأهم في تجاربه التي وصل بها إلى ذلك الاختراع إذ بلغت تسعة آلاف وتسعمائة وتسعة وتسعون تجربة وكانت التجربة العشرة ألف هي المصباح، والمثير في ذلك وما هو مدعاةٌ للتأمل وجديرٌ بالاهتمام في الأمر أن أديسون لم يكرر خطأً ارتكبه في تجربة سابقة في تجربة تليها، والأمر هو أن المرء لا ينتبه إلى خطأ إلا بعد أن يفعله فالطفل، وهو ما يسمى بالملاحظة بالتجربة في المنطق، لا يسمع لكلام النهي والتحذير إلا بعد التجربة فلو قلت له مثلا ألا يلمس الفرن الساخن لأنه سيحرق فانه لا يستجيب لك إلا بعد أن يحترق فعلاً أي بعد أن يخوض التجربة وليس لأن الممنوع مرغوب كما قد يُظن، ولذلك يدعو معشر العقلاء والعظماء الناس إلى الاستفادة من تجارب الغير قبل شروعهم في أعمالهم ومشاريعهم كما يدعو إلى الاستفادة من التاريخ ودروسه لأخذ العبرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام " لايُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين "، وما كان عمل الرسل في أقوامهم إلا أن يرسموا لهم منهج حياتهم وطرق التفكير السليمة وكان ديدنهم – أي الرسل- أن يكونوا قدوة للناس كما هو ديدن العلوم الحديثة التي تسعى أو تستهدف الإنسان بشكل رئيسي عن طريق تنميته وتنمية طرق تفكيره وإرشاده إلى الطريق القويم والأمثل للتفكير ومعالجة منهج حياته وتقويم أخطائه.

ومثل ذلك في عالم التكنولوجيا هو الكتلوج المرفق بالأجهزة الالكترونيةِ وما سواها، إذ أن المرء الذي يقتني جهازاً ولنقل حديثاً يستعصي عليه استخدامه ويتعذر عليه ذلك بدون الكتلوج فإما أن يخوض التجربة ويحاول استخدام الجهاز فتصل به المحاولة إلى تعطيل الجهاز حتى ولو كان خبيراً في الأجهزة لأنه لا توجد تعميمات مسبقة

ومرجعيات يستند عليها في استخدام الجهاز وما تلك التعميمات سوى الكتلوج في أضعف الحالات وغيره الخبرات السابقة والتجارب وللسبب نفسه تقرر على أديسون إجراء ذلك العدد الكبير من التجارب للوصول إلى المصباح الكهربائي، أي أن العظمة ليست في النجاح في التجربة ولكنها في عدم اقتراف الأخطاء التي اقترفتها في التجارب السابقة وقد قيل " حياة الناجحين مسلسل من الفشل ".

والتعميمات والمرجعيات السابقة أو " الكتلوج " هي ما يجعلنا نفعل الشيء ونشعر به ونخافه ونحذره ونحبه ونألفه وكل ما يمكن أن يخطر لنا من متناقضات فكرية أو شعورية أو سلوكية أو اجتماعية، وإلا فما الذي يجعلنا نمسك مقبض الباب ونؤمن بأنه سينفتح ؟ وكذلك الأمر مع كل الأشياء التي نصادفها في حياتنا، كل ذلك بسبب "الكتلوج " والتعميمات السابقة التي نستند عليها فيما نحس ونشعر ونرى ونسمع ونهاب ونخضع، حتى في الدين والعبادة والتقديس والتعظيم والولاء والطاعة والعصيان كل ذلك مرجعه " الكتلوج " وقد عبد الناس الأصنام قديماً بسبب" الكتلوج" الذي أعطاه لهم آباؤهم ومن سبقوهم وكانت تلك حجتهم في معتقدهم، والمجتمع يعطي المرء كتلوجاً في طفولته ومراحل تنشئته الأولى يمكن أن نطلق عليه " كتلوجاً اجتماعياً" فلا يتجاوزه وهو يتضمن كل شيء عن المجتمع وسيرته من عادات وأعراف وتقاليد ومعتقدات و...و....و....الخ.

والأمر بالمثل في عالم الاقتصاد والمعيشة والحياة ومتطلباتها فالإنسان يأخذ كتلوجاً ولنقل ثقافياً من خلال الكتب والمجلات والفضائيات والصحف وغيرها من الوسائل التي من الممكن اكتساب شيء منها ويتخذ من ذلك أي من الكتلوج الثقافي وسيلة ومنهج حياة ولا يختلف الأمر كذلك في اللغة وما نتحدث به ونتلفظه فكل ذلك جاء في الكتلوج الثقافي وكذلك الاجتماعي ويعرف هذا جيداً من نال حظاً من السفر والتنقل

بين المجتمعات والمدن ومن جرب الغربة بغض مهما يكن سببها علمياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو دينياً.

ولكل دولة كتلوجاً تشريعياً ودستورياً تنتظم من خلاله حياة المواطنين وطرائق معيشتهم ولولا ذلك الكتلوج لاختلطت الأدوار وعمت الفوضى، وهذا الكتلوج هو الذي يحفظ للأفراد حقوقهم ويصون لهم حرماتهم ويأتمنون به على ممتلكاتهم ونفوسهم، ويختلف كتلوج الدول عن بعضها البعض عن طريق النظام المستخدم في الكتلوج كالديمقراطية والديكتاتورية و....و...و...إلخ من مذاهب وأنظمة، والمثير أن الدول القوية والعظمى تسعى إلى تعميم كتلوجها على بقية دول العالم والذي أطلق عليه الــ" عولمة" وهو ديدن الأقوى.

وقد يخال البعض أن الحياة قد تكون بسيطة بدون ذلك الكتلوج على تعدد أنواعه والسبب هو أن التفكير عملية معقدة تقتضي التركيز ولعل أعمق حاجات المرء هي أن يخلق ويبدع ويُصير ولذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم" فتبارك الله أحسن الخالقين" صدق الله العظيم وقوله "أحسن " أي أن الإنسان أيضاً خالق وهو من أفعل التفضيل، لكن الملاحظ أن حب الراحة الذهنية والفكرية وحب التقليد وتبني أفكار الغير الجاهزة شائع عند غالبية البشر لذلك فهم يفضلون الاجترار وراء الكتلوجات المشرعة واتباعها في تسيير حياتهم وترظيمها وحتى في طرائق تفكيرهم ولذلك قال الفيلسوف ديكارت" أنا أنساق من تلقاء نفسي إلى تيار أفكاري القديمة وأخشى اليقضة التي يتبعها التفكير المركز....." ولذلك كان المفكرين قلة قليلة في العالم لأنهم هم أصحاب الكتلوجات، وإلا فلو ان أديسون وسواه من مخترعين كانوا يملكون كتلوجات قبل أن يخترعوا اختراعاتهم لما فكروا ولما أبدعوا ولما أصبحوا من المنمازين في تاريخ العالم وبين الشعوب لأنهم هم أصحاب الكتلوجات وليس ذلك مقتصراً على العلوم التطبيقية بل إنه ليشمل كل المجالات وحتى الإنسانية.

سُلطة الدوافـــــع

للدافع سُلطة متحكمة في حياة الإنسان وسلوكياته وقبل أن نفصل في أمر تلك السُلطة وأنواع الدوافع يجدر بنا الإنتباه إلى ماذكره الأديب نجيب محفوظ ذات حديث له تنبهت إليه اللجنة السويدية لجائزة نوبل، وذكرته في حيثيات منحه هذه الجائزة " لو حدث أن تخلى عني دافعي إلى الكتابة في أي يوم فإنني أتمنى أن يكون هذا اليوم آخر أيام عمري ...".

إن كلمة دافع التي هي بالانجليزية «موتيفاشن Motivation» جاء مصدرها من الكلمة اللاتينية «ماتيري Matere» ومعناها يتحرك، ويعرِّف أحد القواميس كلمة «دافع» بأنها الشيء الذي يدفع الإنسان للتصرف أو الحركة ولو قمنا بتحليل كلمة «موتيفاشن Motivation» لوجدنا أنها مركّبة من كلمتين: موتيف + أكشن «Motive + Action» يعني التصرف الناتج عن دوافع.

قال دنيس ويتلي مؤلف كتاب سيكولوجية الدوافع: «تتحكم قوة رغباتنا في دوافعنا، وبالتالي في تصرفاتنا».

ورد في خرافات أيسوب حكاية مؤداها أن أحد كلاب الصيد أفزع أرنباً برية وطاردها ميلاً، وحينما تجاوزته الأرنب كف عن المطاردة.

وقد راقب السباق رجل ريفي لقي الكلب لدى عودته، فطفق يُعيِّره هزيمته قائلاً: أرنب صغير تسبقك!!؟

قال الكلب: آه عظيم، إياك أن تنسى أن الجري وراء طعامك شيء، والجري وراء حياتك شيء آخر تماماً.

لو أعملنا النظر جيداً في هذه الحكاية لتبدّى لنا كم أن الكلب كان حكيماً في ردّه على الرجل الريفي الذي عيّره بهزيمته، حيث فرّق بين معنى الجري وراء الطعام والجري وراء الحياة، وبين مدى تفاوتها والسر وراء ذلك التفاوت والذي هو «الرغبة»، ورغم أن كلاهما يسعى إلى البقاء إلا أن رغبة الأرنب كانت أكبر من رغبة الكلب ولأن رغباتهما متباينة فلا غرو في أن تكون دوافعهم متباينة أيضاً، ونخلص من ذلك إلى أن الدوافع أنماط: «دافع البقاء» و«الدافع الداخلي» و«الدافع الخارجي».

قال العالم النفساني ابراهام ماسلو: «أهم الدوافع للإنسان هو دافع البقاء».

أما حين نتحدث عن الدوافع الخارجية فيجب التأكيد على أن هذه الدوافع لها مشكلة تكمن في أنها تتلاشى بسرعة.. كيف؟!

هذه الدوافع مصدرها العالم الخارجي كأن يكون مثلاً أحد الأصدقاء أو فلماً سينمائياً أو أحد أفراد العائلة أو كتاب ما أو مجلة أو مرؤوسينا في العمل أو خطيب أو محاضر.... الخ.

فلو قرأت كتاباً ما بهدف تنشيط دوافعك النفسية فقس حماسك بعد أسبوع من قراءته ثم بعد شهر ثم بعد ستة أشهر من قراءته ماذا ستجد؟ بالطبع ستجد أن درجة الحماس في انخفاض مستمر بين الفترة والأخرى.. أليس كذلك؟!

قال الكاتب الأمريكي بنيامين فرانكلين: «نظرات الآخرين لنا هي التي تهدمنا.. ولو كان كل من حولي من العميان ما عدا أنا لما احتجت لثياب أنيقة ولا لمسكن جميل ولا لأثاث فاخر».

وقال عالم النفس الأمريكي ويليام جيمس: «لو انتظرت تقدير الآخرين لواجهت خداعاً كبيراً».

لو علمت بأن هناك مسابقة في مجال يخصك وجائزة هذه المسابقة مغرية وقررت أن تشترك في المسابقة من أجل نيل تلك الجائزة وقمت بالاجتهاد والعمل الدؤوب والمستمر حتى تحصل على جائزة المسابقة وفزت فعلاً، فما عليك سوى أن تقيس جودة انتاجك بعد انقضاء المسابقة وحصولك على الجائزة.. فماذا ستجد؟!

لاشك في أنك ستجد أن مقدار الجودة في عملك ونتاجك قد تضاءل بنسبة لا تقل عن 5.% مما كانت عليه حين سعيت لنيل الجائزة.. فما السبب في ذلك؟!

رغم أن المجال هو نفس المجال، وأن الشخص هو نفس الشخص وهو أنت، إلا أن الدوافع قد تغيّرت وهذه هي مشكلة الدوافع الخارجية حيث يتلاشى تأثيرها بسرعة.

قال مارك توين: «يمكنك الانتظار متمنياً حدوث شيء ما يجعلك تشعر بالرضا تجاه نفسك وعملك، ولكن يمكنك أن تضمن السعادة إذا أعطيتها لنفسك».

وقال كونفشيوس أحد حكماء الصين: «ما ينشده الرجل السامي يجده في نفسه، وما ينشده الرجل العادي يجده في الآخرين" عليك أن تكافئ نفسك بنفسك على كل ما تنجزه، لا تنتظر شكراً أو تقديراً من أحد، فالمرء الذي يعتمد على الدوافع الخارجية كالأعمى الذي يقوده الآخرون إلى حيثما يريدون.

أما النوع الثالث من الدوافع فهو الدوافع الداخلية وهو أقواها وأكثرها بقاءً واستمراراً، حيث أنك به تكون موجهاً عن طريق قواك الداخلية الذاتية التي تقودك إلى تحقيق نتائج عظيمة وذلك هو دليل قدرتك على هندسة ذاتك «هندسة عليا» وقدرتك على تصميم ذاتك وإعادة صياغة عالمك دائماً.

الدوافع الداخلية هي السبب في أن يقوم الشخص العادي بعمل أشياء أعلى من المستوى العادي ويصل إلى نتائج عظيمة.. هي القوى الكامنة وراء نجاح الإنسان.. هي الفرق الذي يوضّح التباين في حياة الأشخاص.. هي القوة التي تدفعك إلى أن

تزرع الزهور بنفسك بدلاً من أن تنتظر أحداً يقوم بتقديمها لك «الدوافع الداخلية هي النور الذي يشع من أنفسنا» هي المارد النائم بداخلنا في انتظار من يوقظه.

تبقى مسألة تنشيط دوافعنا الداخلية.. فكيف نستطيع تنشيط دوافعنا؟!

هناك وسائل كثيرة لتنشيط الدوافع أقواها هو «الرابط».. فما هو الرابط؟!

الرابط هو إقامة علاقة بين مدركين لاقترانهما في الذهن لعلة «ما»..

تماماً كعلاقة الدال والمدلول ولنأخذ مثالاً على ذلك تجربة العالم الروسي بافلوف الذي كشف أن عملية الربط بإمكانها أن تثير عملاً جسمانياً، فقد كان بافلوف يقوم في كل مرة بدق الجرس عند تقديم الطعام لكلبه، وكان من الطبيعي أن يسيل لعاب الكلب عند تقديم الأكل وبعد فترة قصيرة تكون ربط عصبي عند الكلب ما بين تقديم الأكل ودقّ الجرس، وبعد ذلك تعمّد أن يدق الجرس بدون أن يقدّم أي طعام للكلب فكانت النتيجة أن سال لعاب الكلب بمجرد سماعه للجرس رغم عدم وجود الطعام.

والإنسان يتصرف على نفس النمط فالعطور والصور والكلام والحركات يمكن أن تكون روابط تعيد إلى أذهاننا مواقف معينة وتجعلنا نعيش مرة أخرى في التجارب التي مررنا بها من قبل.

وقد حصلت لي قصة يمكن أن تكون مثالاً جيداً عن الرابط بذات ليلة استيقظت فيها في صالون الشقة وكنت وحدي، إضاءة صفراء.. صمت.. طنين.. سمعت شبحاً في المطبخ يجلي الصحون، باب المطبخ كان مفتوحاً، ولكن بمواربه، ولا أرى قشعريرة سرت في جلدي كهرباء خوف ما ورائي، غمرت رأسي بالفراش بلا جدوى، وحاولت أقنعني أنني «أهلوس» ولكن «تفكيري» في الشبح زاد حضوره، لمحت ملابس «التايكوندوا» البيضاء معلّقة على الحائط وفوقها حزام أسود، قفزت إليها، ولبستها، شددت الحزام على خصري وأنا أرجف، واتجهت إلى المطبخ وحين دخلت لم أجد

شيئاً لا صوت.. أشعلت الضوء.. لا شيء.. ثلاجة تئز، قطرات ماء تسقط من الحنفية، لا شيء غير عادي شربت الشاي ورجعت، نمت ليلتها بملابس التايكواندوا.

ليس الغريب أن ارادتي تغيّرت من إرادة «منسحبة» «خائفة» إلى إرادة محارب فعاد المكان لي بعد أن كان عليّ، بل كون هذا حدث حين بدّلت ملابسي بالذات لباس التايكوندوا يرتبط في قلبي بالقوة، بقاعات من إسمنت مسلّح فض، والريح تدخل من شبابيك عالية ومكشوفة وأنا في «قتال حر» مع الخصم، وأهاجم، وأنضح عرقاً، هذه «الذاكرة» نائمة في اللباس نفسه، مثلما كانت تنام معرفة الخير والشر في التفاحة الإلهية التي أكلت منها حواء وآدم في الجنّة، لون بدلة التايكوندوا الأبيض وحده، أو لمسة منها لجلدي، تكفي لكي تسيل القوة منها إليّ، لتعود لي ذاكرة ضائعة.

علينا أن نخترع لأنفسنا روابط تمنحنا القوة وتنشط دوافعنا الداخلية فالروابط سلاح ذو حدين من شأنها أن تمنحنا القوة كما من شأنها أن تثبط عزائمنا كما قد تصل بنا أحياناً إلى الهلاك.

إذا أردت تنشيط دوافعك وإشعال حماسك فليس عليك سوى تعزيز الروابط التي بدورها ستزيد حماسك وتمنحك القوة وكذلك التدرّب على استعمال تلك الروابط عدة مرات يومياً حتى تصبح جزءاً منك وتعتاد عليها.

كل ما عليك من الآن بعد أن تخترع الروابط لتصل إلى أعلى درجات القوة وقتما تريد هو أن تلمس الرابط الخاص بالتجربة التي أدت إلى رفع درجة حماسك.

سُلطة الرابط

* للأماكن والملابس والصور والحركات والألوان والأشياء ذاكرة نائمة كما كانت تنام معرفة الخير والشر في التفاحة الإلهية التي أكلت منها حواء وآدم في الجنة..

كلنا نسمع صوت البوق المميز الخاص بشاحنات جمع النفايات التي تطوف الأحياء في كل صباح وهذا الأمر أصبح مألوفاً للجميع وروتيناً يومياً لكن ماذا لو حدث وجاء يوم وسمع الناس صوت ذلك البوق في غير موعده ؟

من المؤكد أنهم سيهبون سراعاً لإخراج نفاياتهم فكيف نفسر ذلك ؟

لنعرف ذلك يلزمنا أن نعرف الرابط والذي بسببه تكون ربط عصبي لدى الناس بين شيئين هما صوت ذلك البوق وإخراج النفايات..

الرابط هو: إقامة علاقة بين مُدركين لاقترانهم في الذهن لعلةٍ ما..

وهناك تجربة للعالم الروسي إيان بافلوف توضح ذلك وتفسره حيث وقد أكتشف هذا العالم ظاهرة غريبة عندما كان يدرس كيفية عمل جهاز الهضم في الكلب، وهذه الظاهرة أطلق عليها " الأفعال الشرطية الكلاسيكية " وهي توضح كيف أن المحفز الخارجي يمكن أن يرتبط باستجابة سلوكية معينة، بعد هذا الاكتشاف أصبح بافلوف أحد العلماء المؤثرين في حقل علم النفس السلوكي وأصبحت تجاربه ونظرياته أساساً لكثير من الدراسات والبحوث التي سيطرت على حقل علم النفس لسنوات كثيرة لاحقة ولحد الآن.

وتتلخص التجربة بالنقاط التالية:

أولا/ إذا دُقّ الجرس قرب الكلب فإنه لا يفرز لعاباً في فمه.

ثانياً/ إذا قُدّم الطعام وهو محفز خارجي غير شرطي (ucs) يستجيب الكلب استجابة غير شرطية (ucr) بإفراز اللعاب في فمه.

ثالثاً / إذا تكرر دق الجرس مباشرة قبل تقديم الطعام فإن الكلب يستجيب استجابة غير شرطية بإفراز اللعاب للتهيؤ لالتهام الطعام.

رابعاً/ وبعد محاولات عدة شرطية إذا استمر دق الجرس وهو محفز شرطي (cs) فإن الكلب يستجيب بإفراز اللعاب حتى دون تقديم الطعام ظناً منه أن الطعام سيعقب دقة الجرس وهذا ما يطلق عليه بالاستجابة الشرطية.. ونرى أنه تكون للكلب رابط عصبي بين دق الجرس والطعام وهو ما نحن بصدده (الرابط)..

- سؤال : ماذا يمكن أن نستفيده من الرابط في إطار الحياة اليومية ؟

إننا من خلال الرابط وتقنيته نستطيع أن نحقق نتائج باهرة في مجال تعليم الصغار في المدارس والبيوت من خلال عمل روابط تقوي الذاكرة لديهم وتساعدهم على الحفظ والفهم فمع الدرس يمكن عمل صورة ما أو لونٍ ما أو لحن كما هو موجود في تفعيلات العروض في بحور الخليل بن أحمد الشعرية فتكون رابطاً يذكرهم بالدرس يصعب نسيانه..

كما نستفيد من الرابط في تنشيط الدوافع الداخلية أو الاستجابة الفسيولوجية فقبضة الكف قد تصبح رابطاً يذكرنا بالقوة في الأوقات التي نشعر فيها بالضعف.. وفي مجال التوعية والإعلام نستطيع أن نقدم صورة قد تبدو عادية ولكنها تبلغ الأهمية القصوى والتأثير فقط بواسطة الرابط كعرضها بالمقلوب في سبيل توعية الناس فيما يخص البيئة مثلا فيرتبط فعل القراءة للوحة أو الرؤية للصورة المقلوبة مع فعل آخر هو لوي

الرقبة وحركة الرأس فترسخ في الذهن وتؤدي التأثير المتوخى في نفوس من يراد توعيتهم، وكذلك يمكن تقديم صورة مغايرة عن الإسلام في وسائل الإعلام المختلفة التي بسبب الرابط أيضاً تكونت عقدة الخوف من الإسلام والمسلمين لفظاعة ما يشاهده الناس أو ما يسمى بـ" Islam phobia"..

كما يمكن أيضاً من خلال الرابط تنمية القدرات والمواهب ونشر الوعي في كافة المجالات..

والرابط قد يكون أغنيةً ما أو عطراً أو ملابساً أو لوناً أو صورة وما إلى ذلك فكل تلك الأشياء وغيرها تأخذ دلالاتها ومعانيها في نفوس الناس ولديهم من خلال ما ارتبطت به لديهم من مواقف سعيدة أو حزينة قوية أو ضعيفة بائسة أو جديرة بالتفاؤل...

سُلطة الوهم

- "لا يصل الإنسان إلى العقل الخالص والحقيقة الخالصة إلا عندما يُدرك أن كل ما في هذه الحياة مجرد وهم....هكذا يقول بوذا.

للوهم صور شتى منها ما يكون اختيارياً ومنها ما هو جبريٌ وتعبير بوذا له تبسيط يوضحه ويُجلي صورته كقول المتنبي :

" وما الخوف إلاّ ما تخوفهُ الفتى / وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا "

كذلك يؤكد الفيلسوف العبد إيبكتيتوس على ذلك بتعبيره :" ليست الأشياء في ذاتها خيراً أو شراً وإن ما يخيف الإنسان هو تصوراتهُ عنها.." وثمة وسيلة علاج ووصفة طبية يُطلق عليها " العلاج بالبلاسيبو " والبلاسيبو هي أقراص سكر تشبه أقراص العلاج الأخرى ويصفها الطبيب في حالات التوهم المرضي الشائعة لدى بعض الناس بسبب الخوف والجهل وبتعاطيها يزول ذلك الوهم ويتعافى المريض من مرضه الوهمي....

وذلك يعود إلى سلطة القناعات التي لها قوة تتغلب على تأثير العقاقير على الجسم أيضاً.وعلى الرغم من أن معظم الناس يعتقدون أن العقاقير تحقق الشفاء فإن الدراسات الحديثة في مجال المناعة النفسية العصبية " أي الصلة بين العقل والجسم" أخذت تثبت ما كان موضع شك لقرون عدة ،وهو أن قناعاتنا حول المرض وعلاجه تلعب دوراً لا يستهان به

،ربما يتفوق على الدور الذي يلعبه العلاج نفسه.ولقد أجرى الدكتور " هنري بيشر" الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية بحوثاً مستفيضة توضح بجلاء أننا في الوقت الذي ننسب فيه الفضل للدواء فإن قناعات المريض هي التي تحدث أكبر الأثر في حالته الصحية.

إحدى التجارب التي مثلت فتحاً في هذا المجال تلك التي أجريت على 1..من طلبة الطب الذين طُلب منهم المشاركة في إختبار نوعين من الأدوية: وقد وصف أحدهما والذي كان على شكل كبسولة حمراء على أنه منشط هائل ،بينما وصف الآخر وهو على شكل كبسولة زرقاء ،بأنه مهدى هائل.ودون علم الطلبة تم تبديل محتويات نوعي الكبسولات إذ كانت الكبسولة الحمراء تحوي باربيتورات " دواء مهدئ " بينما حوت الكبسولة الزرقاء في الواقع امفيتامين" دواء منشط" ومع ذلك فإن خمسين في المئة من الطلاب شعروا بردود فعل بدنية تتوافق مع توقعاتهم ،أي بعكس رد الفعل الكيمائي الذي تحدثه تلك الأدوية في الجسم عادة ! لم يعط هؤلاء الطلاب دواءً غفلاً (أي لا تأثير له)،بل دواءً فعلياً.إلا أن قناعاتهم تغلبت على التأثير الكيمائي للدواء على أجسامهم "..!!

أما هالة الوهم التي يلجها الإنسان اختيارياً بمحض إرادته فليست سوى تعبير عن رفض وتمرد على الواقع الذي يحاصر الإنسان بعاداته وتقاليده وأعرافه وقيمه ومشاكله وهمومه، هي عالم افتراضي يمنح المرء متنفساً أرحب ومنفذاً يبوح الإنسان عن طريقه بما يعجز عن

البوح به في هذا العالم الضحل، وهذا هو وهم الأدباء والكُتّاب والشعراء والمبدعين عموماً، فحين يحس أيٌّ من هؤلاء بغربة نفسية أو مكانية أو مكانفسية فإن هذا العالم الوهمي والافتراضي هو خيمة المحارب والملاذ الآمن بالنسبة له ولعل تجربة جبران خليل جبران أكبر دليل على ذلك ففي عالمه الافتراضي أنشأ مدينة تتناسب وميوله وطموحاته وآماله حتى أصدقاءه وحبيباته اللذين كتب عنهم أجمل الكلمات ووصفهم بأجمل الأوصاف وسواه الكثير ممن لا يتسع المقام لذكرهم..

والإنسان المتمرد فنان بالأصالة، لأن الفن كالتمرد ينصدم مع الواقع ويتلقاه بسلبية، وهو في علاقة جدلية معه، زد على ذلك أن هذا العالم الافتراضي الوهمي بكل ما فيه هو الدافع الذي يحث المبدع على إبداعه ومواصلة العطاء وعدم التأثر بالواقع وبما يجدهُ فيه من معوقات وصعوبات وسخرية في بعض الأحايين، وهو ما يجعله يكافح ويُصرُّ ويتشبث ولا ينتظر شكر أحد بل أنه يكافأ نفسه بنفسه على كل نجاح يحققه ويقدم الورود لنفسه في كل مناسبة وووووإلخ. حتى لو رأى كل من حوله وفي واقعه أن ما يفعله ويقوم به ضربٌ من الجنون ولا طائل من وراءه..

ذكر نجيب محفوظ في حديث لهُ تنبهت إليه اللجنة السويدية لجائزة نوبل، وذكرتهُ في حيثيات منحه هذه الجائزة : " لو حدث أن تخلى عني دافعي إلى الكتابة في أي يوم فإنني أتمنى أن يكون هذا اليوم آخر أيام عُمري.."

وهذا الدافع نفسه " الوهمي والافتراضي " والذي يعتبره البعض مرضي أيضاً هو ما يفتقر إليه الكثير ممن قطعوا شوطاً كبيراً في

الإبداع ثم انثنوا ونكصوا لعدم تقدير الآخرين لهم ولافتقارهم للدافع الذي يجدر بكل مبدع أن يمتلكه...

وهناك الوهم العشقي ووهم الحب والذي يعيشه الناس اختيارياً وبمحض إرادتهم وجل همهم أن يظلوا في دائرته وهالته لا لشيء إلا لما يجدونه فيه من نشوة تنسيهم آلامهم ومشاكل واقعهم ومنغصات عيشهم ومتطلبات الحياة عموماً وقد عبّر الشاعر عن ذلك في قوله :

" قُلّي ولو كذباً كلاماً ناعماً / قد كاد يقتلني بك التمثالُ

قصص الهوى قد جننتكِ فكلها /غيبوبةً وخرافةً وخيالُ"...

وهناك الوهم الذي استخدم في تاريخ الحروب كسلاح وأداة نفسية لتدمير إرادة الجنود المناوئين والأعداء كما استخدم أيضاً في الحروب الباردة التي كانت في الأساس حروباً نفسية...ولعل المقام لا يتسع أكثر مما ذكرناه ولكن لنا تناولات أخرى بإذن الله تعالى.

سُلطة البره ان الاجتماعي

ذات عبارة قالها ديكارت «أنا أنساق من تلقاء نفسي إلى تيار أفكاري القديمة وأخاف أن أصحو يوماً فأجد اليقظة التي تعقبها مشقة التفكير ....."

قلة المفكرين في العالم ناشئة عن الصعوبة التي يقتضيها التفكير المركز ولأجل ذلك فلا غرابة في أن تجد الكثير من الناس يلجئون إلى تبني أفكار الغير الجاهزة وتقليدها ومن دون منح أنفسهم أدنى لحظة أو فرصة في التفكير في مدى صحة تلك الأفكار أو خطأها.

ما لا شك فيه أن حب الراحة الفكرية والذهنية أحد تلك الأسباب الرئيسية التي تجعلهم يلجئون إلى ذلك التقليد والتبني لأفكار الغير الجاهزة.

من ذلك على سبيل المثال نتحدث عن الجانب الاستثماري والتجاري والاقتصادي حيث أن الأمر ليس محصوراً في نطاق الفكر والثقافة فقط في اليمن على الصعيد المحلي نجد أنه ما من مشروع ابتدعه أحدهم سواء كان ذلك المشروع صغيراً أو كبيراً إلا ونجد وفي فترة وجيزة أنه قد انتشر وقلده الناس مثلما تنتشر الإشاعة أو كما تنقل الرياح أشياء النبات للنبات.

فمثلاً بدأت مجموعة من الناس بفتح محلات للاتصالات وفي خلال فترة وجيزة وبمجرد انتشار اشاعة أن هذا المشروع يدر ما يدره من الأرباح بين الناس إلا وقد امتلأت الشوارع بمحلات الاتصالات، والأمر كذلك بالنسبة للباصات وهو أيضا

بالنسبة لسيارات الأجرة، ومحلات بيع العسل و....و.....و..... وهلم جرا، ولو أن أحد هؤلاء الذين يقلدون الآخرين ويحذون حذوهم في استثمار أموالهم منح نفسه الفرصة فقط للحظات للتفكير في مشروع مغاير من حيث تقديم خدمة جديدة وتوفير متطلب يفتقر إليه سوق العمل في البلاد ربما وبنفس المبلغ الذي كان سيدفعه لقاء استثمار تقليدي، إن لم يكن بنصفه أو بثلثيه، لكان من المؤكد مع قليل من الصبر تحقيق ما لم يتوقعه قط من حيث الأرباح ومن حيث التفرد والتلبية لاحتياجات الناس والسوق.

إن من عبدوا الأصنام قديماً لم يكن لهم ذريعة في فعلهم ذاك إلا قولهم هذا ما وجدنا عليه من سبقونا أو «هذا ما وجدنا عليه آباءنا» وهذا هو ما يطلق عليه علماء النفس بالبرهان الاجتماعي ولعل الشخص الوحيد الذي منح نفسه الفرصة للبحث والتفكير إبراهيم عليه السلام والذي استخدم منهج البحث المتشكك حتى وصل إلى إله الخلق وبارئهم واطمأن قلبه.....

وسلبية البرهان الاجتماعي ليس محصوراً على جانب بعينه بل يشمل عدة جوانب وله العديد من الاتجاهات كما أن له من الأضرار ما يمكن أن يكون له من المردودات الإيجابية، والسؤال: لماذا لا ننمي اقتصادنا الوطني والعربي عموماً بعيداً عن سياسة وثقافة البرهان الاجتماعي، فمجتمعاتنا لا تزال تفتقر إلى الكثير والكثير من الاحتياجات..

لماذا لا نمنح أنفسنا وأنا أتحدث على لسان المستثمرين وأصحاب رؤوس الأموال- الفرصة للتفكير فيهما قد ينفع المجتمع ويتواءم مع متطلبات سوق العمل بعيداً عن التقليد وبعيداً عن الحرص والخوف من المشاريع الجديدة من الفشل والخسارة طالما أن هناك دراسة مسبقة للمشاريع هذه لماذا..؟!

إننا حين نتمكن من تجاوز فكر وثقافة البرهان الاجتماعي سيزدهر الاقتصاد الوطني بشكل غير متوقع كما سيكون هناك احتواء للكثير من التخصصات التي لم تجد فرصتها في سوق العمل إلى اللحظة...؟!

سُلطة العرض وسُلطة الطلب

* في القرن الثالث قبل الميلاد ألف أرسطو كتاباً عن الشعر وأرجأ انبثاق الشعر في الإنسان إلى إحدى غريزتين أولهما غريزة اللحن والنغم والأخرى غريزة التقليد فمن ساعدته ظروف حياته على تنمية هذا الاستعداد فاضت قريحته بالشعر.

وفي قصة قابيل وهابيل ما أريد أن أثبته مما قاله أرسطو من حيث أن غريزة التقليد غريزة أصيلة في النفس البشرية فقابيل بعد أن قتل هابيل حار في التصرف بجثته بيد أن العناية الإلهية تدخلت " فبعث الله غراباً يبحث في الأرض" فقلد قابيل الغراب في مواراته لسوأة أخيه ومن ذلك نجد أن الإنسان دوماً يبحث عمن يقلده ويقتديه وما أريد قوله من ذلك أن غريزة التقليد هي أخطر غريزة في النفس البشرية فهي إما تهدي صاحبها إلى الخير أو تهديه إلى الشر.

أكتفي بذلك ثم أبدأ في ما أود قوله: إن الطبيب البارع المحترف هو من يصف العلاج لمريضه بأدنى نسبة من المضاعفات والأعراض الجانبية ورغم ذلك فليس ثمة علاج لا توجد له أعراض جانبية مهما كانت براعة ذلك الطبيب أما حين ننظر إلى الحلول والعلاجات الإلهية فلا ريب في أننا سنكتشف وندرك أن كل ما ورد في الحلول الربانية والقص الرباني في القرآن الكريم كان بدون أي مضاعفات أو أعراض جانبية على سبيل المثال في قصة موسى عليه السلام وفي قوله تعالى «ادخل يدك جيبك تخرج بيضاء من غير سوء» فقوله تخرج بيضاء قد يعني مرضاً كالبرص وغيره بيد أنه قال «من غير سوء" احترازاً أي من دون أعراض جانبية أو أية مضاعفلت والأمر بالمثل في قصة إبراهيم عليه السلام وفي قوله تعالى «وقلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» فقوله برداً قد يكون له من العذاب ما للنار من العذاب بيد أنه

احترز من تلك المضاعفات بقوله وسلاماً والأدلة كثيرة والمجال لا يتسع لذكرها لأن ما نريد التحدث عنه يستدعي الإيجاز بأقل قدر ممكن من الأمثلة.

كل ما قلناه هو المقدمة لموضوع هام وخطير جداً وهو ما تقدمه المؤسسات الإعلامية بكافة وسائلها المرئية والمسموعة والمقروءة فما تقدمه في شكل معالجة لقضايا اجتماعية وأخلاقية و..و..الخ لن أعمم ولكن الأغلب يذكرني بخدعة حصان طروادة فهو جاء في شكل هدية بيد أنه فيما بعد كان سبباً في خراب وتدمير طروادة وما يأتينا عبر وسائل الإعلام يشبه ذلك تماماً حيث تأتي المواضيع على الصعيد الصحفي والمسلسلات والبرامج على صعيد الفضائيات - وأنا لا أتحدث على الصعيد المحلي بل على المجتمع العربي ككل حتى لا يكون هناك لبس أو إجحاف كما أنني لا أعمم فالتعميم ايضاً مجحف يأتي- في شكل هدايا كما يظن معدوها وكاتبوها تناقش قضايا وتحل مشاكل بيد أنها ساعة عرضها ونشرها تتحول إلى قوة مدمرة وكارثة تعمل على إفساد أمة.

إن الجاهل يجد بغيته وما ينقصه من معرفة من خلال التفاصيل الدقيقة للمشكلة التي يتلقاها على شكل مسلسل كانت أو فيلماً أو مقالاً أو سواها وعلى اعتبار أن الكاتب والسينارست هو الأصل في كل ذلك المنتوج فهو المسؤول الأول عن كل ما يحدث فقلة وعيه وهو يكتب عن المشاكل بكافة أنواعها تجعله يعتقد في قرارة ذاته أنه يساهم في حلها خصوصاً حين يسهب في تفصيله ما يجعل من نتاجه والذي يترجم فيما بعد إلى أشكال عديدة منها المقالة ومنها المسلسل ومنها الفيلم مشكلة في حد ذاته..

إن أبناء يعقوب عليه السلام لم يكونوا يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان إلا بعد أن أخبرهم أبيهم فكانت تلك ذريعتهم التي تحججوا له بها فيما بعد والتي رأوها متوائمة مع طريقة تفكيره وسنه وحجم فهمه فالمغبة التي أنتجتها قلة وعي يعقوب عليه السلام لما حذر وخاف منه وكذب على أبنائه من أجلها كانت أحد أسباب ضياع يوسف عليه السلام.

وقد جاء في الأثر عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام: "لا تُعلِموا الكذب فتُكذَبوا فإن بني يعقوب لم يكونوا يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان إلا عندما أخبرهم أبيهم».

إن الكاتب والسينارست والمؤلف كالطبيب وخصوصاً في مسألة طرح المشكلة ومعالجتها فقلة الخبرة والوعي أيضاً تجعل الأعراض الجانبية والمضاعفات باعتبار أن المشكلة مرض لما يظن انه علاج تكون أضرارها وأخطارها أكثر من المرض ومن المشكلة ذاتها..

إن ما لاشك فيه أن لكل مجتمع خصوصياته وثقافته ومشاكله وما لا يختلف عليه اثنان أنه لا يصح أن نقدم أو نستعرض لمشكلة لا تتواءم مع بيئتنا وثقافتنا ولا تمت إلى مجتمعنا بصلة صحيح أنها قد تكون متوائمة وموجودة في المجتمع التي أنتجت فيه لكن من غير الصحيح بالضرورة أن تكون متوائمة مع مجتمع آخر مثل مجتمعنا وفي هذه الحالة سيكون أي عرض لهذه المادة إعلاميا وبكافة الوسائل إما فساد ذوق أو مجرد استعراض أو غزو فكري وإفساد للمجتمع أو فقر إعلامي وثقافي وهذا احتمال نادر.

على سبيل المثال ما جدوى عرض مسلسل يتحدث عن مشكلة الزواج العرفي في مجتمع لا يعرف فيه الزواج العرفي إلا النخبة المثقفة..؟ أليس ذلك سيعمل على نشر هذه الثقافة الفاسدة في المجتمع.؟

إن غاندي حين قال.. «أنا اسمح لكل رياح الأرض أن تهب على بيتي ولكني لا أسمح لها أن تجتثني من جذوري.." كان يقولها بوعي كامل وبتشبع كامل ومعرفة عميقة وعلى أساس متين وبعد نضوج يمكنه من تقبل ثقافة الآخرين دون المساس بثقافته أو التأثير في معتقداته وقيمه وموروثه الحضاري والاجتماعي والثقافي وحين ندرك أننا وصلنا إلى هذا المستوى فلا بأس من تقبل ثقافة الآخر والاطلاع عليها وعرضها بشتى الوسائل.

ذلك كان جانباً أما الجانب الآخر من القضية فهو الطريقة التي تعرض بها المشاكل وهي تظن أنها تساهم في حلها..!!

إن الحلول للمشاكل لا يكون بالتفصيل الدقيق للمشكلة فذلك مما يرغب فيها لأن كثرة العرض ينتج الزيادة على الطلب ولكن الحلول تكون بالترهيب من عواقبها ومساوئها ونتائجها الوخيمة التي لا تحمد عقباها بمعنى يكون التفصيل بنسبة 1.% والترهيب وتعديد المساوئ بنسبة 9.% ومن الأمثلة المطروحة :

- المسلسلات المدبلجة تناقش قضايا اجتماعية كما يراها البعض ولكنها في الحقيقة تروج للزنا ومسلسل نور ومهند مثال لا يحتاج للتفصيل ..

> أفلام تعرض لمعالجة قضايا العنف والإجرام وتستمر طيلة ساعتين ثم تخصص دقيقة أو دقيقة ونصف مشهدا لعقاب المجرمين..؟؟!!

> مسلسلات وأفلام تناقش قضايا السرقة والنصب والاحتيال والخمر والمخدرات وفي تفاصيلها يجد الجاهل بغيته..؟!!

> مقالات تكتب عن أفلام إباحية بلا أدنى رقابة أو تقية..؟؟؟!!

لا مجال للشك في أن يختلف معي الكثير فيما قلته وفيما لم أقله بعد ولكن ذلك من حقه ويكفي فقط أن أذكر مقولة فولتير:

(إنني قد أختلف معك في الرأي لكنني أدفع حياتي ثمناً من أجل أن تعبر عن رأيك).

سُلطة اللغة

- ينشأ الشعر حيث تنفتح مغالق النفس بالحنين، والشوق، والذكرى والحماسة، والمثال..
- •تندفع الخطابة ساعة يدعو موقف خطير إلى التحول أو التثبت أو الاحتدام.
- •تنمو الكتابة في مناخ استقرار الأمة، وانتظام أمور الدولة، وازدهار حقل الثقافة.. فتجئ الرغبة في الترسل تلبية لدواعي المدنية، وتسجيل وقائع السلطة، وتأمين الاتصال بمختلف القطاعات وتعبيراً عن الخواطر والتأملات الذاتية في المجتمع والكون..
- لذا بدا طبيعياً أن يتدرج الأدب العربي زمنياً بنشأة الشعر، فالخطابة، فالكتابة تبعاً لتدرج الشعب العربي من الطفولة فالمراهقة، فالشباب..
- •الشعر يقتضي تفجر مشاعر، وانديا‌ح خيال...
- •الخطابة تستدعي إقناعاً، وتوجيهاً في موقف خطير..
- •الكتابة نتيجة نضج عقلي، وتسلسل منطقي، واختمار ثقافي..
- •ثمة عوامل حضارية وفكرية واجتماعية لها علاقة بتطور نوعية الكتابة وازدهار أساليبها، وكل هذه العوامل ليست بمعزل عن ظروف الحياة الإنسانية المحيطة بها، بل إن ارتباطها بواقع الحياة الاجتماعية أمرٌ بالغ الوضوح..
- * * *

- إن المتأمل لتطور الكتابة العربية خلال القرن الأخير يلحظ ذلك التنوع الهائل في الأساليب ومفاهيم البلاغة والتزيين ودرجات التكرار، والمبالغة، ونوعية الصورة والرموز وتقلص الفجوة بين لغة الكتابة والكلام، بل إن هناك ميلاً واضحاً نحو الدقة والاقتضاب في الكتابات الجديدة..

- • إن لغة جيل النهضة الأول من ناصيف اليازجي وبطرس البستاني والطهطاوي، تختلف عن جيل مطلع القرن من أمثار جبران ونعيمة وغيرهم، وكلاهما يختلف اختلافاً شاسعاً عن لغة الجيل الذي يليهم من أمثال الطيب صالح والمقالح ودرويش وعبد الرحمن منيف وممدوح عدوان والماغوط وعبد السلام العجيلي ونازك الملائكة والسياب والبردوني، ووووإلخ ...وكهم يختلفون في لغتهم عن لغة الأجيال اللاحقة..

-

- • اللغة كلما تغيرت- نتيجة تفاعل عوامل معينة في أي عصر – تغيرت بالتالي وطبيعياً علاقة الإنسان بها، وقد نشأ ميل واضح للابتعاد عن الذرائعية التزيينية من أجل ذاتها، والاقتراب من الذارئعية القائمة على المنهجية والاقتضاب والدقة في أداء المعاني، والتنوع بتنوع الاختصاصات..

- وعلى الرغم من أن العرب لا يزالون يميلون إلى التعبيرية شأنهم في ذلك شأن سائر شعوب العالم الثالث، إلا أن الكثير من التعميمات المبسطة التي يطلقها بعض المستشرقين تنم عن جهل بتطور علاقة العرب لمغتهم..ومن هذه التعميمات على سبيل المثال : يقول باحث نفسي هواي شوبي (E. Shauby) في مطلع الخمسينات أن "الأفكار التي تعبر عنها اللغة العربية هي أفكار غامضة ويصعب تحديدها..." وأن هناك نزعة في التعبير العربي "تجعل الفكرة تتناسب مع الكلمة... بدلاً من جعل الكلمة تتناسب مع الفكرة فتصبح الكلمات بدائل للأفكار وليس تمثيلاً لها.."

وأن النزعة التحليلية ضعيفة في الثقافة العربية فيجري التشديد على الأصوات، ويقرأ الإنسان في اللغات الأوروبية كي يفهم، أما في العربية فالإنسان يجب أن يفهم كي يقرأ".. وتملئ اللغة العربية بصيغ التوكيد والمبالغة.. والتشديد على التفاصيل دون إعطاء صورة منظمة ومفهومة للكل، فإذا قال عربي ما يقصد تماماً دون المبالغة المعهودة قد يفكر العرب الآخرون أنه يقصد العكس.."

- -وتتكرر مثل هذه التعميمات المجحفة التي تقرب من "العنصرية" في كتابة عدد من الصهيونيين الذين دأبوا على تشويه صورة العرب وثقافتهم في الغرب، يقل أحدهم مكرراً التعميمات نفسها ومحاولاً التأكيد على أن من سمات العقل العربي أنه يؤخذ بالكلمات أكثر من الأفكار، والأفكار أكثر من الحقائق..، وهناك أيضاً محاولات للنيل من الثقافات غير الغربية.. فتقول مجلة التايم في مقاله لها حول العقلية الآسيوية – ما مؤداه.. " أن الآسيويين بشكل عام قادرون على الاعتقاد أن الشيء ذاته في آن معاً جيد وسيء، صواب وخطأ، أسود وأبيض، قريب وبعيد، وبأسلوب يذهل العقلية الغربية.."

- مثل ذلك زعم آخرين بأن اللغة العربية لغة شائخة منزوفة الطاقة والمائية، لا تنهض بفكر، ولا تجري في مضمار الحضارة إلى غايتها حتى تلهث، ويبطلُ فيها نبض الحرف، وهي عند آخرون لغة جاءت والصعوبة على موعد، فالقاعدة فيها عصية لا تلين، والقانون النحوي إدراكي مثقلٌ لا يتفق والاستجابات العفوية، وبعضهم يقول أنها لغة مريضة عقيمة، والكثير الكثير من الانتقادات القاصرة المبنية على قواعد من الجهل والتي لا يتسع المجال لذكرها..

- وهذه التعميمات المجحفة لهؤلاء وغيرهم من كسالى العقول ومتخلفوا الفكر وغيرهم ممن لم يكلفوا أنفسهم السؤال عن سبب إنزال الله القرآن باللغة العربية؟! هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يكلفوا أنفسهم مشقة الإطلاع على الكتب العربية

في اللغة ككتب ابن جني وابن فارس والأصمعي والأنصاري والسيوطي وكتب الخليل.. وغيرها من الكتب التي تناولت ما ذكروه وعمموه واتخذوا منه حجة على الثقافة العربية وعلى العقل العربي وعلى اللغة العربية..

- إن الله سبحانه وتعالى عندما أنزل القرآن جعل أول آية تنزل هي "اقرأ" ولم يقل افهم ثم اقرأ، وحيث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أمياً فالخطاب كان عاماً شأنه في ذلك شأن بقية أغلب آيات القرآن الكريم..

- وإن صح شيءٌ مما أورده أولئك المتقحمون على الثقافة العربية و العقل العربي فإنما هو نتاجٌ لجهل العرب بلغتهم الأم وخصائصها وسمات لغة القرآن وفهم طبيعة اللغة وهو الأهم في سياق التنوع الثقافي والنسبي بين الحضارات..

- -إن من يتابع التعليقات الغربية سواء التي تم إيرادها آنفاً في موضوعنا أو غيرها سيلاحظ أنها – أي التعليقات – تصف السلوك ذاته سيئاً إذا قام به الآخرون، و جيداً إذا قاموا به هم..

- إن حروب التحرير في تاريخ الغرب بطولة، وإرهاب إذا قامت به إحدى شعوب العالم الثالث..

- وقد أورد شوبي الرواية التي تقول أن قاضياً عربياً فقد منصبه لأن سيده أراد أن يتلاعب بالكلمات "أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم.." وهم يتخذون من ذلك دليلاً على مقولتهم بأن الكلمة عن العرب بديل وليست تمثيلاً للشيء أو الفكرة.

- وجاء في جريدة الواشنطن بوست أن أحدهم واجه محامياً بعد أن أنهى دفاعه بأنه كان متناقضاً مع نفسه فأجاب هذا المحامي.. "ليس المهم التناقض المهم هو أن نربح القضية.."

- ماذا يقول الأمريكي لو قيل له بناءً على هذه الحادثة أن الثقافة الأمريكية تعتبر أن الغاية تبرر الوسيلة.؟!

- إن الثقافة العربية تشمل اتجاهات مختلفة متناقضة، ففي بعض الحالات تغلب النزعة التعبيرية فيقول العربي.." حلاوة الإنسان في حلاوة اللسان" إنما في حالات أخرى فقد تغلب النزعة الذرائعية فيقول العربي نفسه "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب" وكثرة الكلام خيبة، وقلته هيبة" و"من كثر كلامه قل احترامه" و" البلاغة ما قل ودل"، وكما يكون الكلام غامضاً أو تزييناً في بعض الحالات، يكون واضحاً مقتضياً في أداء رسالته في حالات أخرى، وكما يؤخذ العرب بالكلمات (شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب)، يؤخذون أيضاً بالأفكار والحقائق. وإذا ما غلبت ناحية على أخرى، فإن ذلك يتم نتيجة لقوى وأوضاع ومناسبات تصدق على جميع الثقافات، و لا تكون الثقافة العربية استثناء. وكما يسحر العرب باللغة، كذلك تسحر سائر الشعوب في ظروف مماثلة..

- إن اللغة في مختلف الثقافات ليس مجرد وسيلة أو وعاء، إنها أيضاً تجسيد للثقافة ذاتها..

سُلطة الغربة

- في كتابهِ أمة من المهاجرين يذكر الرئيس الأمريكي الأسبق جون كنيدي أن للهجرة أنماط، فتكون لأسباب اقتصادية وتكون هروباً من اضطهاد ديني، وتكون لجوءاً من استبداد سياسي.

- وفي كل تلك الأنماط تسمى الهجرة غربة، ولها – أي للغربة – سيكولوجيتها وطبيعتها الخاصة، فهناك الغربة المكانية وتعني الانتقال والعيش في وطن آخر، وأسبابها قد ذكرت في الأنماط التي عددها كنيدي في كتابهِ والمذكورة آنفاً، ويضاف إليها الهجرة من أجل الدراسة، وفي الغربة المكانية يقول الفيلسوف اليوناني جالينوس معبراً عن شوق الغريب إلى وطنهِ واعتزازهِ بهِ مهما نأى وتغرب، يقول : " يتروح العليل بنسيم وطنهِ، كما تتعلل الأرض الجدبة بعليل المطر "، وهاهو وعن الوطنية الصادقة، برومثيوس يضرب أروع الأمثلة عن ذلك حين كان يتلقى الضربات في سماء الأولب فيهبط إلى الأرض يتزود منها نسيماً وماءً وهواءً وشعاعاً، ثم يعود ليتغلب على خصومهِ الآلهة المناوئين.. ويذهب الجاحظ إلى أبعد من هذا حول فكرة النسيمية الوطنية فيقول : " كان النفر في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم احتفن معه حفنةً من تراب وطنهِ يضعها في جرابٍ لهُ ليتداوى بها..!!"

رغم ذلك فالغربة المكانية هي غربة اختيارية، في الأغلب، إلا إن تجاوزت حدود الضغوط الاقتصادية من أنماط الهجرة..

- أما النمط الآخر من الغربة فهو الغربة النفسية، وهي غربة صعبة إذ يشعر صاحبها وهو بين قومهِ وأهلهِ بغربتهِ عنهم، فتبدو عليه أعراض الاكتئاب، ويدخل في سياق هذه الغربة ما يسمى في النفسانيات بالتعويض compensation أي مثلما نقول بالبدائل تستمر الحياة، ومن الأمثلة على ذلك الشاعر الشنفرى قديماً والذي يقول معبراً عن هذا :

"ولي دونكم أهلون سيدٌ عملسٌ / وأرقط زهلولٌ وعرفاء جيألُ "

فاستعاض بالحيوانات عن قومهِ وأهلهِ الذين شعر بغربتهِ النفسية بينهم، ومثله الأحمر السعدي، أحد قطاع الطرق في العصر الأموي وكان لصاً فاتكاً، يقول معبراً عن غربتهِ تلك :

" عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى / وصوّت إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

" والنماذج في التاريخ على هذه الغربة كثيرة خصوصاً من شريحة الأدباء والشعراء والفنانين ولكن لا يتسع المقام لذكرها، لكن هذه الغربة ليست اختيارية ولكنها جبرية، تفرضها وتجبر عليها ضغوط كثيرة كعادات وتقاليد وتباينات ثقافية وشعورية لا يدركها كثير من الناس..

- وعن النمط الثالث من أنماط الغربة وأكثرها مدعاةً للأسى فهي الغربة التي تتكون من النمطين السابقين النفسية والمكانية " المكانفسية "، وهي ما بين الجبرية من الناحية النفسية والاختيارية من الناحية المكانية، ومن أمثلتها ومن شعراء المهجر نذكر جبران خليل جبران، الذي اضطرته هجرته وغربتيه النفسية والمكانية إلى صنع عوالم خيالية ليس لها وجود إلا في ذهنهِ والتي نسج عنها أجمل الكلام والقصص والحكايا التي صارت إرثاً فكرياً حضارياً تتناقله الأجيال..

- تلك أنماط الغربة وكلها تأتي في سياق موضوعي، بيد أن هناك علاقة سُلطة بين الموضوعية والذاتية تبعاً لما تحتمه الظروف الثقافية والحضارية والإنسانية، لكن يبقى سؤال هام عالق ترتسم حوله هالة استفهامات كثيرة وهو سؤال الهوية والذي له علاقة وطيدة بالغربة، وهو سؤال من أكثر ما يدور على الألسن ومتداول خصوصاً في هذه الأثناء، فهل حقاً للغربة دور في محو الهوية واستئصالها من أعماق الفرد، أم أن الغربة تعيد صياغة عوالم المرء النفسية لتصنع منه إنساناً جديداً له علاقة بالعالم الذي يعيش فيه، لكنه لا يقبل التنازل عن هويته الأصلية والتي بدونها – على الأقل في نظرهِ وهو الأهم لا يساوي شيئاً ولم يكن شيئاً مذكورا – وليس مثلما نسمع من حكايات عن أناس استبدلوا بدنانيرهم دراهم، فصاروا مسخاً مخيفاً تقوده المادة العمياء وثقافة العقل التي لا ترحم وليس لها هوية ولا تعترف بدين..؟!.

سُلطة الإعاقة

- **الكون صنعة صانع..**
- **الزمان مناخٌ للموت..**
- **المكان عجينة بيد الزمان..أيُعقل أن تفنى العجينة ويزول المكان..!!؟**

- يعشق المثقف التقليدي الكتب، وتعشق أنامله ملامسة الورق، وتهوى مقلتاه السفر والترحال بين غياهب ومكنونات السطور فينفخ من لهب روحه بين الحروف ليمنحها هوية جديدة تبقى في ذاكرته كالوشم في ظاهر اليد.....؟!!

ماذا يفعل من حرم حظه في التمتع بتلك الهبات والنعم..نعمة القراءة ونعمة البصر..؟

بلا ريب سيسافر الصوت الإنساني في تجاويف روحه ويحل بديلاً عن القراءة فبالبدائل تستمر الحياة..

سؤال يطرح نفسه :

- **أين تكمن الإعاقة الحقيقية : هل في فقدان البصر أم في الصمم ؟!!**

للإجابة على هذا نستعرض تجارب وآراء من يخصهم الأمر فثمة جدل حول ذلك فعميد الأدب العربي طه حسين يؤكد أن فقدان البصر ليس مشكلة بقدر الصمم ويعلل ذلك بقوله أن من يفقد بصره لا يفقد سوى الأشياء الظاهرية من عالم الموجودات فقط بينما الأصم يفقد تواصله مع العالم الخارجي تماماً... ولعل ما قدمه المكفوفين للعالم

من إبداع يراعي هذا الرأي بل وهو الأساس الذي بُني عليه فهاهو هوميروس صاحب الإلياذة يتحول إلى أسطورة تعجز الدنيا وهاهو أسير المحبسين بشار بن برد يعلن :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقةٌ / والأذن تعشقُ قبل العين أحيانا "

أما المعجز أحمد ضرير المعرة معلم الدانتيين فيقول :

" أراني في الثلاثة من سجوني / فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي ناضري ولزوم بيتي / وكون النفس في الجسد الخبيث"

ويقول أيضاً :

" ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً / وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا / زجاجٌ ولكن لا يُعادُ لنا سبكُ "

وهاهو عمار الشريعي يتحف الدنيا بألحانه الموسيقية وإبداعاته التي شغلت الناس، وهاهو العملاق البردوني يعلنها متحدياً :

أطعمتهم منّي إليّ تسربوا / أضحوا فمي خبزي بناني معزفي

لا تكترث إنّي على أميتي / أرنو إلى هدفي أرى مستهدفي

من كل ثُقب يوغلون بداخلي / وبرغم إتلافي أُحرقُ متلفي"

إزاء ذلك ثمة رأي آخر يثبته الموسيقار بيتهوفن وهو الأصم الذي أبدع سيمفونياته فهلل لها الجمهور و صفق لها التاريخ ولازال صداها يتردد في ثكنات مسامعنا حتى اللحظة ....

ولا ننسى في هذا السياق رأي هيلين كلر والتي أثبتت للعالم انه لا يوجد إعاقة أصلاً طالما توجد هناك إرادة قوية وطالما أن الإنسان يريد ولذلك فقد أوجدت لها مكاناً في

هذا العالم وحققت ذاتها وأثبتت وجودها ولعل من الجدير ذكره أنها كانت تعاني فقدان البصر والصمم وكانت آراءها حول أين تكمن الإعاقة الحقيقية آراءً إنسانية صرفة فقد تمنت أنها لو منحت نعمة البصر رؤية من جعلوا حياتها جديرة بأن تُعاش... وهي من قال أن ّ " الحياة مغامرة جريئة.."

وهنا نقف لنردد قول أبي فراس الحمداني :

" لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها / إذا لم يكن للمبصرين بصائرُ " وهذه هي الإعاقة الحقيقية فلا الصمم ولا العمى يستطيع أن يوقف النهر عن الركض، فليس سوى أن يريد الإنسان ليثبت ذاته ويحقق وجوده..

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه :" من ابتليته بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة " وقوله حبيبتيه يجعل من المعنى متسعاً وهذا أهم شروط المجاز وله وجوه عدة فقد فسرت وقرئت على أنها عينيه ولكن لأن الرسول الأعظم أوتي جوامع الكلم وكلامه حُفّ بالعصمة وأؤيد بالرشد هذا فيما كان يقوله هو فما بالنا فيما يرويه عن ربه ولذلك نقول أن لفظة حبيبتيه تشمل كل ما قد يفقده المرء من أعضائه لسبب بسيط هو أن تركيبة النعم والحواس التي تفضل بها علينا رب العالمين زوجية ولأن الله لا يفرق في جزاء الابتلاء الذي يبتلي به عبده بشرط الصبر، ولذلك نقول أنه لا يوجد إعاقة فيما يخص الأعضاء والحواس والإعاقة الحقيقية هي في عمى وصمم القلوب والآيات القرآنية تؤكد ذلك وتثبته وفقدان الحواس لا يعني البتة فقدان الإحساس بل على العكس فقدان الحواس يجعل المرء أكثر حساسيةً وأرهف شعوراً وأعظم إنسانيةً..

سُلطة المشكلة

- التاريخ لا يُعيد نفسه مرتين إلا عندما لا نتعلم من أخطائه، والحمقى فقط من يغتسلون بالماء نفسهِ مرتين..!!

حكاية المشاكل مع الإنسان تشبه في تفاصيلها حكاية المغناطيس ودبابيس الخياطة، فالصوت الذي يُحدثه التصاق الدبوس بالمغناطيس يكون قوياً مسموعاً في البداية ولكنه يخفت ويخفت ويخفت حتى يكون همساً ثم يخفت حتى يتلاشى وليس ذلك فقط فالدبابيس الأخيرة يكون حظها بائس جداً إ ذ أنّها تتساقط فيبدو الأمر من المغناطيس وكأنه لا يكترث لأمرها ولا يهمه شأنها فيتصرف معها وكأنها غير موجودة أصلاً فتذهب بُدداً إلى العفاء لا لشيء إلا لرتابة الأمر وتكرره فالألفة والتعود يلغي الاهتمام والمبالاة ويُبطل الاكتراث...وهكذا حال الإنسان مع المشاكل ففي البداية يكون لها أثر كبير عليه وصوت انصدامه بها مدوياً، ثم يخفت أثرها ويأخذ في التلاشي رويداً رويداً حتى يزول الاكتراث حتى ليبدو المرء كمن يعاني صدمة كبيرة أبطلت ردة فعله على ما يحدث في عالم الموجودات وأبطلت شعوره فتبدو المشاكل كما لو أنّها شخصٌ يقطع في جلدٍ ميت..!!

إن المرء الذي تتفاقم مشاكلهُ تفاقمت بالتالي خبراته، واعتياده عليها يُبطل فعلها كما يزول أثرها وعليه وتبعاً لذلك الاعتياد يصبح صاحبها، ولا يسلم من ذلك إلا قلة قليلة، صاحب تجربة وخبرته لا

تقل عن خبرة رجل قضى في مهنته عقوداً من الزمن ولذلك فـتعامله معها يكون تعامل المحترف فهو حيناً يؤجلها وحيناً يعالجها وحيناً يبحث عن المساعدة، وحيناً يتجاهلها، بيد أنه لا يستطيع تفاديها وإلغائها فالمحال هو أن تنعدم المشكلة من حياة الإنسان حتى ولو كان صاحب تجارب وخبرات شتّى فهو لا يطلع الغيب ومع كل تجربة حياتيةٍ جديدة تنقصه المعرفة والخبرة في التعاطي معها، فيسلك مسلكاً يتوقع ما ستكون عليه خطواته القادمة كمن يضع دراسة جدوى وهو مُقدمٌ على مشروع جديد ورغم ذلك فمعرفته وتوقعاته لا تتجاوز المراحل والخطوات الأولى فتتلبسه الحيرة من ثمّ وتزوره المشاكل من جديد فالرياح غالباً تأتي بما لا يشتهي الملاح..

وتختلف ويختلف معها المشاكل في مرحلة السن المتقدمة ففي الشباب ننصدم بالمشاكل وفي الشيخوخة تنصدم بنا المشاكل وهنا الحال هو حال المغناطيس مع الدبابيس ففي المراحل المبكرة يكون الصوت مدوياً ومع تقادمها وكثرتها على الالتصاق بالمغن اطيس ترتطم بلا صوت وتتساقط ويستحيل أن يكون لها صوت مع الإنسان إلا في حالة واحدة فقط ومع صنف واحد هم الحمقى من الناس اللذين لا يتعلمون من مرّةٍ واحدة ويروقهم إعادة التجربة بكل خسائرها كما يروقهم الاغتسال بالماء نفسه مرتين ويروقهم أيضاً أن يعيد التاريخ نفسهُ مرتين ويعود النهر القهقرى ولكم كان عليه الصلاة والسلام موجزاً لهذا في قوله :" لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين." !!

سُلطة المهنة

(1)

- قيل أن ملكاً من الملوك رأى فتاةً جميلةً للغاية تتسوَّل فأعجبته وتزوج منها، وأغدق عليها من حياة الملوك كما لم يغدق على سواها.. وبعد فترة قصيرة لوحظ على الفتاة الكدر والملل وعدم الرضا ثم بدا أنها تطلب طعامها إلى غرفتها وتأكل لوحدها.. استغرب الملك ذلك الفعل وقرر مراقبتها، وجاء أحد مواعيد الطعام وهو يكمن لها ويراقبها، فوجدها تطلب أكلها، وحين جاء لها الخدم بالأكل تلفتت بشكل مريب حتى تأكدت ألا أحد يراها فوضعت الطعام في النافذة وقرعتها بهدوء وانتظرت قليلاً ثم قالت: يا أهل الله اعطونا مما اعطاكم الله، وانتظرت برهةً ثم أخذت الطعام من النافذة وهي تدعو الله لشخص افتراضي أعطاها الطعام.. وبدأت في الأكل بشراهة لا تليق بمن في مكانتها.. فلم يجد الملك بعدها بداً من أن يطلقها ويعيدها إلى ما كانت فيه من حياة تعودت عليها حتى أنها لم تستطع أن تعيش سواها.."

(2)

- يحكى ان رجلا كان جنرالا في الجيش وحين تقاعد اشتغل في حمام عمومي بالإشراف على الاباريق والتأكد من انها مليئة بالماء، فجلب أباريقا ملونة بحيث إذا اتى من يريد أن يقضي حاجته يأخذ احد الاباريق، ثم يرجع الابريق الى مسؤول الاباريق الذي يقوم بإعادة ملئه للشخص المقبل، وهكذا..

فكان اذا اتى شخص واخذ ابريقا اصفرا نهاه وامره ان يأخذ ابريقا احمرا او اخضرا. وفي إحدى المرات جاء شخص كان مستعجلاً، فخطف أحد الاباريق بصورة سريعة وانطلق نحو دورة المياه، فصرخ به مسؤول الاباريق بقوة وامره

بالعودة اليه، فرجع الرجل على مضض، فأمره مسؤول الاباريق ان يترك الابريق الذي في يده لانه اصفر ويأخذ آخر بجانبه بلون مختلف، فأخذه ثم مضى لقضاء حاجته، وحين وعاد ليرجع الابريق سأل مسؤول الاباريق: لماذا أمرتني بالعودة وأخذ ابريق آخر مع أنه لا فرق بينهما؟؟! قال مسؤول الاباريق بتعجب: إذا ما عملي هنا؟؟.

(3)

- ثمة علاقة وطيدة تربط بين سلوك الإنسان وطبيعة عمله، وهي علاقة تتطور وتتعمق وتُسيطر على سلوكيات الإنسان بوعي منه وبدون وعي، هذه العلاقة تندرج في إطار العلاقات الإنسانية السلوكية المحضة ، والتي لا تحتاج إلى مرجعيات أو استنادات أو مسوغات لإثبات صحتها وفاعليتها وحقيقة وجودها، بل تقتضي التأمل لأنها لا تتحقق إلا مع المدى البعيد غالباً أو مع بدايات الإنسان التكوينية التي تشكل وعيه وثقافته، فالمعلم – مثلاً- له علاقة سلوكية تربط بينه وبين طبيعة عمله ، حيث يصبح منطقهُ في تعاملهُ مع من حوله وفي محيطه منطق الأمر والنهي ولغة " أفعل ولا تفعل " ....، والأمر بالمثل مع المخبر أو المحقق الصحفي ، والذي يصبح منطقه بوعي وبلا وعي غالباً ، في التعامل مع من حوله ومع محيطه منطق الأسئلة الستة التي تقتضيها طبيعة عمله ..! وكذلك الجندي الذي يصبح منطقه – وهي حالة تحددها وتحدد طبيعتها الرتبة والجهة المنتمي إليها ، ولكن الخضوع هو السائد ، وكذلك المهندس والمحامي والمحاسب والتاجر ....و.....و.....وهلم جرّا.

- ولتفصيل الأمر حول سُلطة المهنة نسوق مثالاً عظيماً إذ ولحكمة عظيمة اشتغل مُعظم الأنبياء بمهنة رعي الأغنام، وهي مهنة من أشرف المهن وأنبلها وأكثرها إنسانيةً ، فإذا تأملنا علوم العصر الحديثة من إدارة أعمال وتنمية بشرية وما إلى

ذلك، وتأملنا طبيعة مهنة رعي الأغنام لوجدنا أن هذه الأخيرة تترجم وتختزل في تفاصيلها كل تلك العلوم كما تلخص وتختزل صفات القائد الناجح ، فطبيعة رعي الأغنام تعني السير بالقطيع في منهج واحد حتى يصل بها الراعي إلى سهل الكلأ. قال نيلسون مانديلا في ذات خطابٍ له :" على القائد الناجح أن يكون كالراعي الماهر الذي يقود قطيعهُ من الخلف بكل مهارة واحتراف .." وقبله قال عليه الصلاة والسلام مؤكداً على ما نحن بصدده بشمولية :" كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته ....." .

- إن طبيعة الرعي تقتضي الصبر والتضحية والحب وإنكار الذات والأمانة والإنسانية ، ولا تتوفر كل هذه الصفات إلا بتوفر عنصر الإخلاص كما أنها تنمي الشعور بالمسئولية وعظمتها لدى الإنسان ، وجديرٌ بنا أن نلفت إلى أن اشتغال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وآخرهم محمد بمهنة الرعي في مراحل تكوينهم ونشأتهم كانت من أجل تأهيلهم أولاً على ما سيصير لاحقاً وكانت مع نبينا الكريم بمثابة النبوءة التي تحققت فيما بعد ولخصت الرسالة الشريفة والدور الكبير والمهمة الجسيمة التي كانت على عاتقه إذ جمع الناس ووحدهم ومضى بهم في منهج واحد ليصل بهم من ثمّ إلى "سهل الكلأ/المحجة البيضاء".

(4)

فيلم "سوق المتعة" بطولة محمود عبدالعزيز وإلهام شاهين ويحكي قصة رجل دخل السجن لعشرين عاما بتهمة تم تلفيقها له وبعدها تم منحه من قبل من دخل السجن بدلا عنهم من تجار المخدرات مبلغا وقدره سبعة ملايين جنيها فظن أن ذلك المال سينسيه كل ما ضاع من عمره وتم الاتفاق على شرط قبول المال وهو عدم السؤال عمن تسبب في ادخاله السجن واعطاه المال مالم فسوف يتم سحب المال وموته ..

اختار الرجل الذي يؤدي دوره محمود عبدالعزيز مومسا ليتزوجها تؤدي الدور إلهام شاهين وهو لا يعرف لماذا اختار مومسا للزواج بها رغم انه يملك المال والغنى ثم يشتري ارضا ويبني عليها عنابر كعنابر السجن الذي كان فيه ومن ثم يجمع كل من كان في السجن معه ويدفع رواتب مجزية لهم من اجل ان يجتمع معهم في العنبر الذي بناه ويمتهنون اهانته وتحقيره وعندما تكتشف خطيبته ذلك تفسخ خطبتها به رغم أنها مومس وهو السبب ذاته الذي اختارها به ولأن الرجل أصبح مصابا بعقدة يسميها علماء النفس عقدة الإتضاع ويدرك أنه لا سبيل إلى الشفاء منها ولا حتى بمال الأرض وقد سببتها له حياة المهانة والإذلال التي عاشها في السجن طيلة 20 عاما رأى أن يضحي بكل شيء في سبيل معرفة من تسببوا فيفي ذلك وتنتهي حياته...

سلطة الأول

استقر في الذاكرة الجمعية للشعوب عبر التاريخ أن الأول في كل أمر محمود وسُلطته غير محدودة بل ويتجاوز أمر السلطة إلى ترأس كل موقف.

ولعل من نافلة القول استعراض شيء مما جاء من أمثال العرب عن تلك السلطة التي يمتلكها أول الأمور فيقال " أول الغيث قطرٌ " ويقال "أول الشجرة نواة" ويضرب للأمر الصغير يتولد منه الأكبر ومثله " أول الطريق خطوة" وفي مكارم الأخلاق وخصومات الأحباب " العود أحمدُ " وهو من قول الشاعر " وأحسن عمروٌ في الذي كان بيننا / وإن عاد بالإحسان فالعودُ أحمدُ" بمعنى أن الإبتداء محمود والعود أحق منه بأن يحمد. وفي العلوم التي تدرس فيها المقادير ثمة أشياء مسلم بها أي أمور بديهية تسمى " الأوليات" وهي في المنطق والقانون الدعاوي الواضحة التي لاتحتاج إلى برهان كالقول " الكل أكبر من الجزء".

وفي المدرسة يكون الفصل الأول من كل صف دراسي هو الذي يجمع الطلاب النوابغ والأذكياء وفي الكراسي الأولى من الصف يجلس الطلاب الأذكياء والمجتهدين وفي التعليم الأكاديمي يكون الأول معيدا في الجامعة وهكذا. وفي عالم العواطف الحب الأول له مذاقه المختلف الذي لاينسى يقول الشاعر " نقل فؤادك حيث شئت من الهوى / ما الحب إلا للحبيب الأول، كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى / وحنينه دوما لأول منزل". وبالمثل يكون البكر من المواليد له حظ الأسد من كل شيء وعليه تقع المسئولية الكاملة عن بقية أخوته في حال غاب الوالدين أو أحدهما.

وفي العلوم والمعارف والفنون نجد أن الأول في كل مجال يصبح صاحب الطريقة التي يتبعها من يأتي من بعده فهو يؤسس بإبداعه مدرسة ومذهب ولايختلف الأمر كثيرا حتى في عالم الشر والجريمة فالشيطان له مذهبه أيضا وله أتباعه.

وأخيرا وحتى لا أستطرد كثيرا أقول أن اجتهاد الإنسان على أن يكون الأول في كل مبادرة يجعل له سلطان في قلوب من حوله ومن يحب ولما لا وهو لايحرض على الشر أو يدعو لفتنة .. لماذا لا نكون أول من يلقي التحية و أول من يصفح و يعفو وأول من يزور في المكاره ومناسبات السرور و أول من يهنئ و أول من يبادر في كل شيء..

لست بصدد إحصاء كل شيء عما جاء عن الأوائل وفضلهم وفضل أول مبادرة تدعو إلى محبة وسلام بل كان كلامي مقتضبا لقول كلمة خلاصتها أن سُلطة الأول ليس لها حدود وسلاحها ذو حدين فالأول في قد يشعل حرباً والأول أيضاً قد يوقف حرباً ويصنع سِلماً والكلمة الأولى أنثى والكلمة التي ترد عليها ذكراً وما تبع ذلك من محبة أو إعلان حرب ودمار هو تجسيد لسُلطة الأول.

سُلطة الحكي

لماذا يحكي الإنسان! وما هي السُلطة التي تمتلكها الحكاية على صيرورة حياته واستقامة وجوده?

ثمة تقليد تلتزمه القبائل في إفريقيا، يسمى تقليد " أكين" وسيرة القبيلة بل ووجودها مرهون بشخصية "أكين" وهذا التقليد.. تقليد أكين " عليه أن يحكي دائماً تاريخ القبيلة وأمجادها وسيرتها منذ البداية.. وعندما يشعر "أكين" هذه الشخصية المختارة التي تحكي بكبره وقرب فنائه عليه أن يورث كل ما كان يحكيه عن القبيلة وتاريخها وحاضرها و أمجادها لـ "أكين " آخر .. وقد كانت العرب قديماً، تسمي الشيخ الكبير بالشيخ الكنتي (مِن كنتُ) لأنه يحكي قصصه، يحكي كثيرا، يحكي أكثر من الذي لا يجد ما يحكي لأنه لا يزال في دوامة الأحداث . و يحكي أكثر ليعيد بناء هوية قوامها صنع الحدث، لكنها اليوم بعيدة عن تلك الفاعلية، هي، بعبارة محددة، مهددة بالفناء و تريد البقاء و (الوجود). ومثل الجماعة يحكي الفرد ليجدد هويته، وليستبصرها عميقا، وليمدها بمعرفة تبدو – وهماً – معروفة من قبل لكنها تغدو معروفة- حقاً- عبر التشفير الرمزي ؛ أي تحويلها إلى أشكال رمزية كما يرى السيميائي كاسيرر. وبذلك تنتقل من هلام مفكك يتمدد في الوعي واللاوعي إلى صور محددة في الإدراك المتعيّن باللغة. تمارس الذوات المفردة حكاياتها لتعلن عن وجودها (أنا أحكي إذن أنا موجود) ، فوجودها بدون الحكي يعني الوجود غير المبين. اللغة داخل خطاب السرد هي من يهبنا صورةً بنيوية، و إلا فنحن حكايات مشتتة ؛ حكايات لا هوية لها ، ولا تأخذ هويتها إلا بالسرد. لماذا

تموت حكايات عظيمة وتفقد وجودها ؟ لأنها ببساطة لا تحكى. تلك هي سُلطة الحكي في تحقيق الوجود و هكذا يرتبط الحكي بالجماعة كما يرتبط بالفرد. أيّ جماعة تحكي لتشكل هويتها، تحكي لتكون، وفي عوالم أقطاب الدراسات الثقافية فإن الحكي هو الأمة The Narration Is The Nation، و كل حكي يشمل " مجموعة قصص وصور ومشاهد وسيناريوهات وحوادث تاريخية ورموز وطقوس قومية ترمز إلى أو تمثل التجارب المشتركة والمآسي والانتصارات والويلات التي تضفي على الأمة معنى. و إذا كان الأمر كذلك، فالأمة تحكي لتعيد تشكيل ذاتها؛ لترسم معالم هويتها؛ لماذا يحكي السود رحلة العذاب والعبودية بين أفريقيا والعالم الجديد؟ ولماذا يحكي اليهود الشتات؟ ولماذا يحكي العرب سيرة أجدادهم في هذا الزمن بالذات؟.

تلك هي الصورة المكتملة لسُلطة الحكي عند الفرد الذي يصبح الجماعة في آن والذي يصبح الأمة والتي لايكتمل وجودها إلا بالحكي.

سُلطة الخط

- يحكى أن أحد المتخصصين والدارسين لعلم الخطاطة في عهد سقراط اكتشف أن لهذا الأخير من خلال خطه – نزعه نحو السرقة – فحنق تلاميذ سقراط بعد سماعهم لنتيجة الدرس وانتشار الخبر بيد أن المعلم "سقراط" طمأنهم وهدّأ من روعهم قائلاً لهم ما معناه: "إنه أي دارس الخطاطة" على حق أساساً ولكني تغلبت على تلك الرذيلة بقوة إرادتي..

قبل أن نقول أن في كلام سقراط ما يثبت أن بإمكان الإنسان أن يتغلب بإرادة قوية على نزعة أخلاقية غير مستحبة أو حميدة في شخصيته سنتطرق إلى موضوع هام وهو عن الخط وكشف خفايا الشخصية أو "علم الخطاطة"..

إن علم الخطاطة قد حُدد في الغرب كما يلي: أي" العلم الذي يسعى لمعرفة شخصية الفرد من دراسة خطه" والخطاطة تهدف إلى تحديد علاقة ما بين عناصر منظورة "الخط" وعناصر غير منظورة "المعطيات السيكولوجية"..

ويعتبر المؤسس الحقيقي لهذا العلم في العصر الحديث هو "كريبيوجامان" على الرغم من أن "ميشون" هو السباق في هذا المضمار، وقد كرس كريبيو جامان حياته في البحث والتفتيش غائصاً في أسرارها محدداً آثارها وإطارها..

وقد وضع مؤلفاً جاعلاً منه نقطة انطلاق لمراقبة الأصول العلمية الصحيحة واضعاً بعض الملاحظات الأساسية متحفظاً تجاه نظرية "ميشون" المتعلقة

بالإشارة الثابتة التي تتبدل وتتعدل تحت تأثير الخوف والبرد والتعب حيناً والفرح والترح أحياناً..، مؤكداً مثلاً أن الخطوط محددة ببعض الأجناس والتي هي.. الترتيب والسرعة والضغط والشكل والاتجاه والبعد والاستمرار وللتفصيل نقول:

أ) الترتيب:

يمكن للخط أن يكون ظاهراً إما غامضاً منسقاً أو مشبكاً مبوباً بهوامش كافية أو ملبداً، إن هذا النوع يتم عن طريقة تنظيم الكاتب في الزمان والمكان مع إمكانية تمسكه بالأنظمة والقوانين الأخلاقية والاجتماعية.

ب) السرعة:

التشخيص سهل جداً، فالخط السريع ينم عن عملٍ سريع والعكس بالعكس وعلى كل حال فالسرعة تعتبر من الإشارات التي تساعد على اكتشاف الأمزجة..

ج) الضغط:

الضغط ينبي عن النشاط، الحزم، والميول المادية في هذا الجنس نجد الخط "النافر" الذي كثيراً ما ينم عن الاتصال بالآخرين والأشياء فيشير إلى حب الطبيعة والميل نحو الجمال، إنه من عوامل الوضع الجسدي والنفساني معاً..

د) الشكل:

الشكل ينم عن الذكاء وإذ مع الإبقاء على إمكانية قراءة الخط يصار إلى إلغاء بعض التفاصيل في خط الأحرف، وبالتالي تخفيفها، حينئذٍ تظهر العبقرية بصورة جلية، فالخط الصريح المنسق يعني النظام والصدق والعكس بالعكس وإذا كان الخط مقرناً مقنطراً فينم عن واقعية في العمل، أما إذا كان مزوياً مزخرفاً فيعني نزولاً نحو البديهة...

هـ) الاتجاه

الخط في اللغة اللاتينية يتجه من اليسار إلى اليمين ويبقى عمودياً، فالمتفائل وصاحب الحرية و الشجاع له نزعة الكتابة طلوعاً أما المتشائم والكسول والضعيف فالنزعة عنده نحو النزول ثابتة، ولكن يجب هنا الأخذ بعين الاعتبار السن والتعب والمرض، أي تلك الأوضاع غير العادية التي تحمل على خط كتابه نازلة..

إن الانحناء في عالم الاتجاه أيضاً له شرحه، فإذا اتجه يميناً يكون عائداً لشخصية دينامية تفكر بالغير وبالمستقبل..

وأما إذا كان مقلوباً نحو الوراء فإن الشخصية خائفة ضعيفة ومنكمشة على نفسها تتكل على الماضي.

أخيراً الخط العمودي الذي يفرض الإرادة وحب الوصول..

ونذكر بهذا الصدد المتخصص السويسري "موريس دلامان" الذي ترأس جمعية الخطاطة سنيناً طوال والذي أضحى ثالوث الخطاطة وهو لا يكتفي بوصف طبع قابل يسعى للوصول إلى النفس في أعماقها بل كثيراً ما يلجأ إلى مفهوم الرمز بمعنى أنه يفكر هكذا: "إن الخط اللاتيني يتجه من الشمال إلى اليمين" خلاف العربي" وبالتالي يفرض حتمية التطور من الشمال إلى اليمين، فاليسار يرمز إلى الماضي والعائلة والأم، أما اليمين فيرمز إلى المستقبل والآخرين والأب من جهة أخرى، يأتي النور مع النهار من فوق والظلمة والأرض موجودة من تحت فالمنطقة العليا تمثل في الخط الفكر المتبادل "الله" والمنطقة السفلى تمثل المادة واللاوعي، أما وجودنا نحن فهو على مصلب الجهات الأربع..."

و) البعد:

الفرح يوسع الخط و الترح يزمه، إنه يفرض مقارنة بين عدة وثائق على كل حال إذ أن للاضطرابات النظرية والسن أكثر من تأثير في هذا المضمار مما يفرض معرفة البعد العادي لخط الكاتب وعلى هذا البعد يبنى مدى إنطلاق شخصيته وطريقة حكمه على نفسه فالخط الصغير ينم على دقة وسرعة وأما الكبير منه فعلى حب الظهور والتوسع..

ز) الاستمرار

الاستمرار يبين نوع الطريقة التي تتبع للقيام بعمل ما فكرياً أم مادياً هل من عقلانية مبنية على منطق ضيق؟ أو هل من دعوة إلى الحدث؟ أما عند تطرقنا إلى "المواصفات" عند "هيغار" مثلاً فنجد أنه يمكن تلخيص نظريته بالنسبة للخط بالأمور التالية:

- العمودي:

غياب، تردد – ميل نحو الواقعية – إثبات للشخصية.

- المنحني:

غنى في الصور – حياة داخلية –مرونة.

- المسنود:

يفرض ذاته – نزعة نحو الشعب - سلطة – إرادة.

- الخفيف: يقع تحت التأثير..

- السريع: حركة، طاقة محركة.

- البطيء: نشاط متجدد، سيطرة ذاتية.

- الصريح: حرية واقعية، سيطرة الفكر – ذكاء ظاهر...

- الكثيف: سيطرة العاطفة – تعلق بالجنس.

فيمكن القول إذاً بأن مجمل الخط ومستواه يقرران قيمة الجزئيات والمفردات، إنها طريقة التحقق "طريقة الجمع بين الصريحة والبغيضة" وهي الطريقة المنطقية التحليلية الفرنسية..

- علم ثوابت الخط..

لقد أراد بعضهم ونحن من أنصارهم أن يجعلوا من "الخطاطة" علماً صحيحاً فأدخلوا فيها "القياسات" من أجل خلق ما سمي "بعلم ثوابت الخط" وهو علم بتطور مستمر، فالمحاولات الأولى كانت للعالمين "غونبو" و"بيرون" اللذين أجريا الاختبارات على الأولاد لاسيما من أجل إعادة تربية "التفسير الكتابي" والطريقة ذاتها تستعمل لمعرفة تأثير الأمراض العقلية على الخط، كما وأن السيدة "ستين لفينسون" قد وضعت أصولاً لقياس الخط صار ذكرها بوضوح في مجلة "جمعية الخطاطة" هذا مع الإشارة إلى أن في عالم الأمراض العقلية حقل تجارب في هذا المضمار لا يوصف.

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن الخط يعطي في الأساس شكلاً يأخذ الأبعاد الثلاثة: العمودي والأفقي والعمقي، وهذه الأبعاد مربوطة فيما بينها بعلاقة دينامية هي حسب الظروف إما علاقة انقباض وإما علاقة توازن وإما علاقة انبساط..

- وإن جميع الأصول المنبثقة في علم "ثوابت الخط تنطلق من علم "الخطاطة" ذاته، وهو لا يتنكر له بل يزيد عليه القياس و بالتالي يعطيه أكثر وضوحاً ليجعله أكثر صراحة..

- ماذا يوحي لنا علم الخطاطة؟!

- يمكن أخيراً القول إجابة على سؤال ماذا يوحي لنا علم "الخطاطة" أن الإنسان كائن اجتماعي ومن أجل تحقيق التبادل خُلق الكلام ولكن إشارته أيضاً هي طريقة وصل وتبادل وتعبير وبما أن أساس تلك الإشارات هو الخط فإنه يدرس وفق طرق عديدة متكاملة فالأصول التحليلية تبين معالم أطباعه وأما الأصول التركيبية فتنبي عن شخصيته في العمق، وإذا كان الفكر يأمر الخط ويوجهه، فالعاطفة تقولبه، أما الفكرة فتجدده والوحي يخففه وهكذا تظهر الإرادة في المظهر المتوازن المتناسق يمكننا تجاه ما ذكر القيام بتطبيق موضوعي لعلم "الخطاطة" وأن نردد بالنتيجة على إثر مؤسسها "ميشون" فنقوم بواسطة "الخطاطة" من أجل خدمة المجتمع في إنسانه فرداً وجماعات..

سلطة القناعات

- التعميمات هي تحديد لهوية وطبيعة أنماط متشابهه في الحياة .فما الذي يسمح لك بفتح باب مثلاً ؟ إنك تنظر إلى مقبض الباب .وعلى الرغم من أنك لم تر هذا الباب قط من قبل .غير أنك تشعر أن الباب سيفتح بالتأكيد إن حركت المقبض باتجاه اليمين أو اليسار ،أو أن دفعته أو سحبته .فلماذا تعتقد ذلك ببساطة ؟لأن تجربتنا مع الأبواب قد زودتنا بمرجعية كافية تخلق لدينا إحساساً باليقين يسمح لنا بالمتابعة .إننا، دون هذا الإحساس باليقين ،لن نكون قادرين على مغادرة البيت وقيادة السيارة واستخدام الهاتف أو القيام بعشرات الأشياء التي نقوم بها كل يوم، فالتعميمات تسهل مسار حياتنا وتسمح لنا بالقيام بالوظائف المطلوبة منا.

غير أن التعميم في النواحي الأكثر تعقيداً من حياتنا قد يبسط الأمور أكثر مما يجب لسوء الحظ، بل قد يفضي أحياناً إلى قناعات تحد من إمكانياتنا .

إن معظم قناعاتنا هي عبارة عن تعميمات حول ماضينا مبنية على تفسيرنا لتجارب مؤلمة أو ممتعة ..

للقناعات قوة تؤدي إلى الإبداع أو التدمير ،كما أنها لا تقتصر على التأثير على أفعالنا وعواطفنا فحسب ،بل يمكنها أن تغير أجسامنا في غضون لحظات كما حصل مع رجل الثلاجة

إن للقناعات قوة تتغلب على تأثير العقاقير على الجسم. وعلى الرغم من أن معظم الناس يعتقدون أن العقاقير تحقق الشفاء فإن الدراسات الحديثة في مجال المناعة النفسية العصبية " أي الصلة بين العقل والجسم" أخذت تثبت ما كان موضع شك لقرون عدة ،وهو أن قناعاتنا حول المرض وعلاجه تلعب دوراً لا يستهان به ،ربما يتفوق على الدور الذي يلعبه العلاج نفسه .ولقد أجرى الدكتور " هنري بيشر" الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية بحوثاً مستفيضة توضح بجلاء أننا في الوقت الذي ننسب فيه الفضل للدواء فإن قناعات المريض هي التي تحدث أكبر الأثر في حالته الصحية .

- إحدى التجارب التي مثلت فتحاً في هذا المجال تلك التي أجريت على 1..من طلبة الطب الذين طُلب منهم المشاركة في إختبار نوعين من الأدوية: وقد وصف

أحدهما والذي كان على شكل كبسولة حمراء على أنه منشط هائل ،بينما وصف الآخر وهو على شكل كبسولة زرقاء ،بأنه مهدى هائل .ودون علم الطلبة تم تبديل محتويات نوعي الكبسولات إذ كانت الكبسولة الحمراء تحوي باربيتورات " دواء مهديء " بينما حوت الكبسولة الزرقاء في الواقع امفيتامين" دواء منشط"

ومع ذلك فإن خمسين في المئة من الطلاب شعروا بردود فعل بدنية تتوافق مع توقعاتهم ،أي بعكس رد الفعل الكيمائي الذي تحدثه تلك الأدوية في الجسم عادة ! لم يعط هؤلاء الطلاب دواءً غفلاً (أي لا تأثير له)،بل دواءً فعلياً .إلا أن قناعاتهم تغلبت على التأثير الكيمائي للدواء على أجسامهم "أليس ذلك هو نفسه ما حصل مع رجل الثلاجة والتي كانت معطلة أصلاً ؟!

- إن قناعاتنا بمجرد أن نتقبلها ،تصبح بمثابة أوامر لا تناقش لجهازنا العصبي ،ولها القدرة على التوسع وتدمير كل إمكانياتنا في الحاضر والمستقبل .

القناعات ليست شيء كما يتعامل معها معظم الناس كلا بل هي شعور بالتأكيد واليقين من شيء ما فإن قلت مثلاً إنك ذكي فما تقوله في الواقع هو "إنني أشعر أنني ذكي بالتأكيد " وهذا الشعور باليقين يسمح لك بأن تستجر من مصادر تسمح لك بأن تتوصل لنتائج ذكية .إن لدينا جميعاً في داخلنا أجوبة على كل الأمور تقريباً ،أو على الأقل لدينا إمكانية التوصل إلى أجوبة عن طريق الاستعانة بآخرين .غير أن احتقارنا للقناعة، للتأكد هو ما يجعلنا غير قادرين على استخدام القدرات التي تكمن في داخلنا .

السبيل البسيط لفهم القناعة هو أن نفكر في أساس بنائها :ألا وهو الفكرة ،إذ أن هناك الكثير من الأفكار التي يمكنك أن تفكر فيها ولكنك لا تقتنع بها.

- كيف نحول الفكرة إلى قناعة ؟!

يمكن تقديم تشبيه بسيط يصف هذه العملية .يمكنك أن تمثل الفكرة على أنها ترس الطاولة "سطحها" دون أرجلها ،وبذلك تستطيع أن تتصور بوضوح كيف أن الفكرة لا تصل إلى مستوى القناعة في مدى اليقين بها .

إذ بدون أرجل الطاولة لا يمكن لترسها أن يصمد من تلقاء ذاته أما القناعة فلها أرجل .فإن كنت مقتنعاً بأنك جذاب فكيف تعرف أنك جذاب ؟أليس السبب أن هناك مستندات (مرجعية) تدعم هذه الفكرة بعض التجارب من حياتك تدعمها ؟إن هذه هي الأرجل التي تسند طاولتك وتجعلها صلبة وتجعل قناعاتك ثابته ومؤكدة.

ما هي بعض التجارب التي تستند عليها والتي مررت بها في حياتك ؟ربما قال لك بعض الناس أنك جذاب .أو ربما كنت تتمعن في شكلك في المرآه وتقارنه بأشكال أولئك الذين يعتبرهم الناس جذابين وتقول لنفسك :(حسناً ،ألست أبدو مثلهم ! أو

ربما كنت تشعر بأنك تلفت نظر الآخرين .كل هذه التجارب تظل بلا معنى إلى أن تنظمها تحت فكرة بأنك جذاب .وحين تفعل ذلك فإن تلك الأرجل الساندة تجعلك تشعر بالثقة بالفكرة ،حيث تبدأ في الإقتناع بها .تصبح فكرتك ثابته وبذا تغدو قناعة .

حين تفهم هذا التشبيه تبدأ تتصور كيف تتشكل قناعاتك ،كما يتراءى لك كيف يمكنك أن تغيرها ،كما أنه بإمكاننا تطوير قناعاتنا حول أي شيء إذا استطعنا العثور على أرجل كافية – تجارب كافية نستند عليها – لكي نبني هذه القناعة

السؤال هو أي من هذه القناعات هي الصحيحة ؟الجواب هو ليس المهم أيها هو القناعة الصحيحة ،المهم هو أيها يمنحك القوة الأكبر.

أما أقوى الأرجل "المرجعيات " صلابة تتكون بفعل التجارب الشخصية التي نتمسك بها عاطفياً بشدة لأنها كانت تجارب مؤلمة أو ممتعة .

- سؤال ..هل لا بد للمستندات المرجعية أن تكون صحيحة لكي تكون راغباً في استخدامها ؟

كلا بل يمكن أن تكون حقيقية أو متخيله ،صحيحة أو غير صحيحة ،بل حتى تجاربنا الشخصية يشوهها منظورنا الشخصي، مهما كانت صلابة شعورنا إزاءها.

إننا نملك القدرة على استخدام مستندات مرجعية متخيلة لكي تسندنا في توجيه أحلامنا .ويمكن للناس أن ينجحوا إذا تخيلوا شيئاً ما بشفافية كافية كما لو أنهم جربوها حقاً .وهذا يعود إلى أن دماغنا لا يستطيع التفريق بين شيء فتخيله بشفافية وبين شيء جربناه تجربة فعلية إذ يمكن لجهازنا العصبي أن يجرب شيئاً وكأنه

حقيقي حتى لو لم يكن قد حدث بعد، إذا توفرت له الحدة العاطفية والتكرار الكافيين .

كل من يستعمل الكمبيوتر لا بد له من أن يعرف اسم " مايكروسوفت" ،غير أن ما يجهله معظم الناس هو أن بيل جيتس ،أحد مؤسسي شركة "مايكروسوفت"

لم يكن مجرد إنسان عبقري صادفه الحظ ،بل كان شخصاً بدأ عمله دون أن تكون لديه أية مرجعيات تستند عليها قناعاته ، ولكنه حين اكتشف أن شركة البوكيرك ALbuquerqueتطور شيئاً أطلقت عليه اسم الكمبيوتر الشخصي وانها تحتاج له برامج بيسك BASICاتصل بهذه الشركة ووعد بتقديم هذا البرنامج ،علماً بأنه لم يكن لديه أي شيء من هذا القبيل حينذاك .وما أن التزم بذلك حتى وجد أن عليه أن يعثر على السبيل الذي يحقق له ما وعد به ، وكانت عبقريته هي قدرته على الإحساس باليقين.

فقد كان الكثيرون بماثلونه ذكاءً غير أنه استخدام يقينه لكي يستحضر مصادره ،وفي غضون أسابيع قليلة كان هو وشريكه قد كتبا لغة جعلت الكمبيوتر الشخصي حقيقة واقعة .

وحين وضع بيل جيتس نفسه في ذلك الموقع وابتدع سبيلاً له ، بدأ بيل جيتس في ذلك اليوم مساراً من الأحداث غير الأساليب التي ينتجها الناس للقيام بأعمالهم وأصبح ملياردیراً وهو في الثلاثين من عمره فاليقين يخلق القوة.

- أنماط القناعات
- يمكن تقسيم القناعات إلى ثلاثة أنواع : الآراء ،القناعات ،العقيدة

- أما الرأي فهو أمر نشعر نسبياً باليقين به ،غير أن هذا اليقين يبقى مؤقتاً .إذ أن من الممكن له أن يتغير بسهولة . فترس طاولتنا الإدراكية تسنده أرجل مرجعية مقلقة لم يتم تمحيصها ،وربما كانت تقوم على مجرد انطباعات لا غير فالآراء قابلة للتحول خلاف الحقائق ،وهي تبنى عادة على مرجعيات قليلة يركز عليها المرء في لحظة ما من لحظات حياته ، أما القناعة فهي تتكون حين نبدأ في تطوير المزيد من المرجعيات المساندة ،خاصة المرجعيات التي تسندها عاطفة جياشة. وهذه المرجعيات تعطينا شعوراً شديداً باليقين بشيء ما. غير أن علينا أن نؤكد ،أن هذه المرجعيات قد تكون بأشكال متنوعة بحيث تشمل تجاربنا الشخصية والمعلومات التي استقيناها من مصادر أخرى ،بل وحتى أشياء تخيلناها بشفافية .

- لا شك أن الناس الذين يحملون قناعات لديهم مستوى قوي من اليقين .بحيث أنهم يصبحون مغلقين أمام الإقتناع بمعلومات جديدة. غير أنك إن استطعت التواصل مع هؤلاء الأشخاص والتواؤم معهم فقد تستطيع التغلب على هذا الإنغلاق بحيث تدفعهم إلى التساؤل حول مرجعيتهم ،وبذلك يتقبلون معلومات جديدة .وهذا من شأنه أن يخلق قدراً من الشك بحيث تهتز مرجعياتهم القديمة مما يتيح المجال لقناعات جديدة.

- أما العقيدة فهي تتغلب على القناعة ،وذلك لأن الناس يربطون فكرة ما بقوة عاطفية جديدة .فالشخص الذي يحمل عقيدة لا يكتفي بالإحساس باليقين بها بل يغضب إذا وضعت هذه العقيدة موضع التساؤل ، وهو لا يقبل أن توضع مرجعياته موضع التساؤل ولو للحظة واحدة فالمتعصبون على مدى التاريخ يتمسكون بما يعتقدون به إلى حد الهوس بحيث أنهم يبدون استعداداً للقتل دفاعاً عن قناعاتهم وهذا هو ما دفع كثير من الناس أيام الحكم الإمامي في اليمن الشمالي حينها " بالتقطرن " احترازاً من الجن بناءً على توجيهات الإمام، وهو نفسه ما دفع مجموعة من الناس الذين يعيشون في غايانا لدس السم لأطفالهم في شراب الكول إيد لقتلهم ثم تناوله

هم أنفسهم بناءً على توجيهات مهووس أطلق على نفسه صفة المسيح هو " جيم جونز "

ليست المعتقدات المتحمسة قصراً على المتعصبين فقط ،بل نجدها أيضاً لدى أي شخص يلتزم التزاماً كافياً بفكرة أو مبدأ أو قضية ويكرس نفسه لها .

وربما كان العامل الأكبر الذي يفرق بين القناعة والعقيدة هو أن العقيدة تنبع عادة من حوادث عاطفية يربط الذهن بينها وبين القول " إن لم أؤمن بهذا سأتعرض لألم شديد. ولو غيرت هذه القناعة فإنني سأفقد الهويّة التي تميزني تماماً وكل ما نذرت حياتي من أجله لسنوات ".

فالتمسك بالعقيدة بهذا الشكل إذاً يصبح أمراً حاسماً بالنسبة لبقاء الإنسان وحياته .وقد يكون هذا أمراً خطراً ،إذ أننا إن لم نكن نبدي أي رغبة في التفكير باحتمال أن تكون قناعاتنا غير صحيحة فإننا سنقع في فخ التصلب الذي قد يؤدي بنا في النهاية إلى الإخفاق ،ومن الأفضل للإنسان أن يكون مرناً في قناعاته في بعض الأحيان .

غير أن المعتقدات تتسم بالإيجابية نظراً للعاطفة التي توحي بها لنا بحيث أنها تمنحنا قوة تحملنا على القيام بالفعل .

جاء في الأثر" لواعتقد أحدكم بحجر لشفته"

إن أفضل ما يمكن لك أن تفعله لكي تتقن ما تفعله في أي منحى من مناحي حياتك هو أن ترفع من مستوى قناعاتك بحيث تصل إلى درجة العقيدة .تذكر أن للعقيدة قوة تدفعك للقيام بعمل ولتجاوز كل أنواع العقبات .وقد تفلح القناعات في تحقيق ذلك ،إلا أن بعض مناحي حياتك قد تتطلب الشدة العاطفية للعقائد .

سؤال ..كيف نتوصل إلى ابتداع العقيدة الراسخة ؟

نستعين للإجابة على هذا السؤال بكلام لانتوني روبنز:

1) إبدأ بقناعتك الأساسية .

2) عزز قناعتك بإضافة مرجعيات جديدة أكثر قوة ،وكلما ازداد مقدار مرجعياتك وكلما كانت هذه المرجعيات أكثر عاطفية ازدادت عقيدتك قوة ورسوخاً .

3) ابحث عن حادث يدفعك ،أو ابتدع مثل هذا الأمر. توصل إلى رابطة مع العقيدة الجديدة بالتساؤل " ما هو الثمن الذي سأدفعه إن لم أفعل ؟

4) اسأل نفسك اسئلة تخلق لديك حدة عاطفية .

5) قم بالعمل فكل إجراء تتخذه يعزز التزامك ويرفع من مستوى معتقداتك وشدة شعورك العاطفي .

أحد التحديات الخاصة بالمعتقدات هو أنها كثيراً ما تبنى على أساس حماس الناس وتبنيهم قناعاتك .ففي الكثير من الأحيان يؤمن الناس بأمر ما لأن كل الآخرين يؤمنون به (هذا ما وجدنا عليه أباؤنا الأولين) وهذا ما يسمى في علم النفس بالبرهان الإجتماعي .

غير أن هذا البرهان الإجتماعي ليس صحيحاً دائماً .فالناس حين يكونون غير واثقين مما يتوجب عليهم أن يفعلوا يتوجهون إلى الآخرين لكي يوجهوهم.

تذكر أن مفتاح النجاح وأساس الهندسة العليا هو تنمية الشعور بالثقة :-

تلك القناعة التي تسمح لك بأن تتوسع كشخص وأن تقوم بالعمل اللازم لكي تجعل حياتك وحياة من يحيطون بك أكثر عظمة.قد تعتقد أن شيئاً ما صحيح الآن .غير أن عليك وعلىَّ أن نتذكر أننا ننمو بمرور السنين ونتعرض لتجارب جديدة .وقد نكتسب قناعات تمنحنا قوة أكبر ونتخلى عن أمور كنا نشعر أنها مؤكدة من قبل .

عليك أن تدرك بأن قناعاتك قد تتغير بتجميع المزيد من المرجعيات المساندة . المهم في الأمر هو فيما إذا كانت القناعات التي تحملها الآن تمنحك القوة أم تسلبك القوة .أبدأ منذ هذا اليوم باكتساب عادة التركيز على النتائج الناجمة عن قناعاتك .فهل هي تعزز من قواعدك بحثك على التحرك في اتجاه الفعل لتحقيق ما ترغب فيه ،أم هي تكبح جماحك وتجرك إلى الخلف؟

وأخيراً إليك هذا القول المأثور : " كما يفكر المرء في أعماق قلبه ،هكذا يكون "..

سُلطة الحوار

❖ لعل من الصعب قول أننا نملك فضيلة التسامح في ظل غياب الإيمان العميق والراسخ بجدوى " الحوار" كمسلك يُحسّن ويُجمّل ما نراه وندركه من أشياء..

حين نعتقد أن في كل المسائل الغامضة نقاطاً مُظلمة، تحتاج إلى إضاءة، وأننا عن طريق قدراتنا العقلية والمعرفية الخاصة، لا نتمكن من إجلاء وإضاءة تلك النقاط، فإننا سنسعى إلى الحوار بوصفة الوصفة الناجعة والأداة الوحيدة لتوضيح الصورة الذهنية لمعظم الأشياء وقد قال الأول بحق :" أن الأفكار لا تنضج إلا إذا لاكتها ألسُن المناظرة..".

الحوار يُلزمنا تمحيص الأفكار والمقولات وغربلتها كما أنه يمنحها بُعداً إضافياً وجديداً كانت بمنأىً عنه كما يجعل لها آفاقاً رحبة، وبالمقابل فإنه يُقصي الزبد منها ويبدده إلى العفاء نظراً لامتداداته اللامشروعة..

والحوار منطوٍ على التسامح، لأنه ينطوي على اعتراف ضمني بالقصور، ويحد من غلواء الاعتداد بالذات، وهذا هو الذي يرسخ بدوره مشاعر الحاجة إلى الآخرين لدينا والعكس.وبمجرد توفر هذا الشعور يبدأ التنازل، وتبدأ حركة التأثير والتأثر. والشعور بالحاجة إلى الآخرين- من وجه آخر- يشكل شرطاً للاستفادة من الحوار.

إن كل فردٍ منا مطالب بالإيمان بأن الحوار ليس شعاراً تزيينياً نرفعه أو نتجمل به، بل مصدراً للتعبير عما نفكر به، ومصدراً لتنمية الاتجاهات وإزالة اللبس والأوهام. ولا شك أن الحوار سيكون مُثمراً إذا استطاع أن يخلق جواً من الشك في أمور كنا ننظر إليها نظرة الموقن الجازم بما يرى وبما يذهب إليه. وإن الشك يولد بداية لامتلاك زمام المراجعة، في الوقت الذي يؤسس فيه للتسامح ولكم هو جديرٌ بنا الوقوف للتأمل على قول الله تعالى:" قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنّا وإياكم لعلى هُدى أو في ضلالٍ مُبين" (سبأ:24). ومن الواضح أن الآية تشتمل توجيه للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يدعو الكفار إلى المحاورة من أجل اكتشاف الفريق المهتدي من الفريق الضال.

إن النبي لا يشك، ولا يشك المؤمنون معه كذلك أن الحق معهم، لكن هذه الدعوة من باب التشجيع على مراجعة الكلام وإثارة النقاش، إنه تسامح شديد الوضوح يُتيح درجة من التكافؤ بين الرسول المعصوم والمبلغ عن ربه وبين أقوام لم ينالوا من العلم إلا أقل القليل. وقد قال بعض النحاة إن " أو" في الآية للتشكيك وهي أيضاً للإبهام، إنها تُساعد على خلق جو من الشك يُشجع المُعرضين عن الإسلام على الانفتاح من جديد على الدعوة المقدمة إليهم عن طريق الإيحاء باستعداد المسلمين للانفتاح على ما لدى مُخالفيهم. وهذا مثل قول الواثق من حُجته لخصمه : أحدُنا على الحق، أو أحدُنا كاذب مع أنه لا يشك أنه صادق وأنه على الحق، لكنه التحفيز على الحوار وإعادة النظر.

سُلطة الهاتف البيولوجي

- ما هُو في مُتناول أيدينا ليس في شيءٍ مقارنة بما هو كامنٌ في أعماقنا، ألسنا أكثر إبداعاً من مُحاولة التجرُّد من إنسانيتنا؟

إنَّ للمرء مِنَّا قُوىً رُوحيةً هائلةً لا تحدّها حُدودٌ ولا تُقيِّدها قُيود، قُوىً نائمةً في أعماقنا كمارِدٍ في زُجاجةٍ ينتظر مَنْ يُوقظه ويُخرجه منها.

إنَّ التكنولوجيا مهما بلغت من أسباب التطوُّر، تظلّ قاصرةً عاجزةً أمام إمكانيات الرُّوح البشرية وقُدراتها وتقنياتها، رُبَّما حُبّ الراحة - وأعني بها الذهنية - أعمى بصيرتنا عن حقيقة أنَّ «إنسانيتنا أقوى من التكنولوجيا »، حقيقةٌ تجاهلناها، حقيقةٌ تناسيناها.

إنَّ الساعة الإلكترونية - رغم ما وصلت إليه من دقَّةٍ ونظامٍ - ليست في شيءٍ أمام الساعة البيولوجية، دقَّةً ونظاماً وعملاً، ومهما تطوَّرت ستظلّ عاجزةً وقاصرةً أمامها.

ومثل الساعة البيولوجية، هُناك «الهاتف البيولوجي »، قد يكون المصطلح مُستفزّاً ومُستثيراً ومُستنكراً لأوَّل وهلة، إلاَّ أنَّه حقيقةٌ لا محض خيال، ولنُعرِّف به، نطرق باباً يعرفه السواد الأعظم، وهو «التخاطر»، فـ «التخاطر » ظاهرةٌ تتولَّد لدى الإنسان على شكل قُوَّةٍ رُوحيةٍ هائلةٍ يستطيع من خلالها - إذا تهيَّأت له ظُروفٌ خاصَّةٌ تُحرِّره من القُيود البدنية - إدراك واستشعار أحداثٍ تقع في أماكن بعيدة،

ويستطيع الشخص الذي يمتلكها أن يتبادل المشاعر والخواطر مع أرواح أشخاصٍ آخرين، يكفي أن يكون بينه وبينهم موضوعٌ ما أو علاقة تعاملٍ ما، وذلك هُو الهاتف البيولوجي.

ولكي نُؤمن بحقيقة وسلطة «الهاتف البيولوجي » - «التخاطر » - يكفي أن نأتي بتعريفٍ لظاهرةٍ نُؤمن بها جميعاً، هي ظاهرة الحسد، «فالحسد قُوَّةٌ رُوحيةٌ هائلةٌ يستطيع صاحبها - إذا ما تهيَّأت له الظُّروف - أن ينتقم أو يحقد/يحسد، بأن يصدر موجاتٍ لم يتمّ التعرُّف على نوعيتها إلى حدِّ الآن، تُؤدِّي إلى إحداث انقلابٍ في حياة الشخص الذي يقع عليه الانتقام، مادِّيَّاً أو جسدياً أو نفسياً »، أعاذنا اللَّه وإيَّاكم من ذلك.

إنَّ مثل الساعة البيولوجية والهاتف البيولوجي، مثل الكثير من القُدرات والإمكانيات والتقنيات التي تنتظر مِنَّا الاتِّصال بها والتفتيش عنها في أعماقنا، فلماذا نُمجِّد أولئك الذين أُستشهدوا في ساحة المعركة؟ فالإنسان يُبدي شجاعةً مُماثلةً وهُو يغوص في أعماق ذاته.

لماذا الآخر !؟

- **ليس للأشياء قيمة سوى لدى مستهلكيها فقط..!!**

عندما بعث الله الرسل خصّهم بمعجزات من جنس ما هو شائع ومستهلك ومتداول لدى أقوامهم، ولولا ذلك لما كان لمعجزاتهم سبيل إلى الإقناع، وكذلك ما دعوا إليه فموسى السحر وعيسى الطب ومحمد القرآن وأكثر...و....و.....و إلخ.

ولو دخلت مجلساً لا تتفق ثقافتك وتخصصك مع ثقافة الجالسين وتخصصاتهم وأخذت تتحدث إليهم لكنت بلا ريب كمن يبحث عن القبعات في دنيا العمائم وسعلتك بلا شك بائرة، أو كمن يضع المائدة على مقبرة ولأجل استيعابك يجب أن تحلق مع السرب وإلاّ فأنت حالة لا حكم لها..!!؟

رغم ذلك فالاختلاف والتباين بين الناس علماً وذوقاً يؤلف وحدة المجتمع الذي سيُعاب إن لم يكن فيه هذا الاختلاف كما أنه يمنح الأشياء قيمتها، ولولا ذلك الاختلاف لبارت السلع، كما أنّه السبيل الوحيد للتواصل مع الآخر وتأكيد وجوده..

وقد ترسخ عبر العصور حقيقة مفادها أن الصراع ثابت ولأجل ذلك كان هناك التخصص الذي سيخفف من سخائم هذا الصراع لأن اجتماع الناس يورث الأحقاد، خصوصاً حين ينعدم التنوع في التخصص، ولكن مالا يدركه العالم العربي وما يجب أن يُدركه بقوة أن الآخر هو جزء من حياتي، وجزء من عالمي الخاص، وهو في رقبتي على طول المدى، فلا يمكن أن أعيش بدون الآخر، ولا استطيع حتى أن أمارس العبادة بدون الآخر أيّاً كان لونه أو دينه أو جنسه أو جنسيته أو عرقه أو معتقده. واختلافه عني هو الناموس الكوني الذي بني عليه هذا الكون والذي يقتضي التعددية وهو سر وجود الخلق واستمرار حياتهم..

والآخر فقط هو من يمنح وجودي قيمة وبدونه أنا لا أساوي شيء..!!

إن الحضارة الإنسانية ازدهرت وازدهت بالتنوع والأحادية لم تصنع إلا أفولاً وذبولاً، لذا فكم نحتاج لأن نختلف ونأتلف ما يمنح وجودنا قيمة وما يمنحه وظيفته الطبيعية..ولنتيقن أن الوتر الواحد لا يصنع نغماً، والعصفور الواحد لا يصنع ربيعاً، والوردة الواحدة لا تصنع بستاناً..!!

لماذا الآخر؟

سؤال لا يُجاب عنه إلاّ بسؤال آخر :

لماذا الحب ؟ لماذا الإنسانية ؟ لماذا المجتمع ؟ ولماذا تنتظم الأكوان وتتحرك وتسير إلى غاية ؟

هنا يحين الجواب..

إن طلب التجمع أصيل في أعماق كل موجود، فهو عنوانٌ على الوحدة، وعلى وجود المتنوع من أبناء الأسرة الواحدة، وعلى رجوع الذرية إلى أمها الكبرى " الأرض"..!!

أيُّ عَالَمٍ يسكُنك؟!

- **ما هو في متناولنا وبين أيدينا ليس في شيء مقارنةً بما هو في أعماقنا !!**

لا يختلف اثنان على عظمة الخالق وحكمته حين نحرم شيئا ولكننا في المقابل نوهب أشياء عظيمة من قبيل ما يسمى بالتعويض والحقيقة أننا محظوظون في كلا الحالتين حيث أن صبرنا على ما حرمنا منه يخولنا نيل الجزاء وإذا ما نحن استخدمنا ما وهبنا إياه كتعويض ووظفناه في سبيل ما وهب لنا من أجله نلنا الجزاء أيضاً آنياً ودانياً...

إن ما لا يفقهه الكثير من الناس هو ما الذي يمكن أن يجدوه بأعماقهم ولذلك فهم كالتائه في صحراء لا غور لها ولا دليل، ومن قبيل ضرب المثال نطرح هذه التساؤلات: أين تعيش ؟ في أي عالم؟ أين ترعرع قلبك ؟

بلا ريب الإجابة هي : في العالم الثالث، وندرك من ذلك أننا لم نملك الخيار في اختيار العالم الذي ولدنا فيه ونعيش فيه تماما مثلما لم يكن لنا الخيار في اختيار أشياء كثيرة...

نعم نعيش في عالمٍ بائسٍ فقير متخلف.....إلى آخره مما يمكن أن يصفنا العالم المتحضر به أو العالم الأول – إن صح التصنيف - وحيال هذا ليس في متناولنا أن نقبل أو نرفض ليس لنا إلا الصبر.

رغم ذلك فلو تأملنا المسألة بعيون قلوبنا لوجدنا أن فيها حكمةٌ ما فحتماً لاشيء عبثا، أليست الورود الجميلة تنبت بين الشوك ؟ وأليس الجمال ما نخلعه ونضفيه من أرواحنا على الأشياء فتصبح جميلة، والأمر سيان مع ما نخافه ونحذره ونرجوه ونأمله ونحبه وننشده كل ذلك وغيره مصدره أعماقنا ومن داخلنا يقول الفيلسوف العبد إيبكتيتوس : " ليست الأشياء في ذاتها خيراً أو شراً وإن ما يخيف الإنسان منها هو تصوراته عنها " وقد كان المتنبي أبلغ من هذا في قوله :" وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى / وما الأمنُ إلاّ ما رآهُ الفتى أمنا ".

إذن العبرة هي فيما هو بأعماقنا ويسكننا ونفكر فيه، قد يكون العالم الذي نسكنه العالم الأول ولكن العالم الذي يسكننا هو العالم الثالث أو عالمُ متخلف بلئس وأدنى من ذلك بكثير، كما قد يكون العالم الذي نسكنه العالم الثالث بيد أن العالم الذي يسكننا ليس العالم الأول بل الجنة أو العالم المثالي " اليوتوبيا " التي حلم بها كل فلاسفة التاريخ ومفكريه، عالمٌ يكفي لننسى معاناتنا في الواقع ونتجاوز بؤسنا وأحزاننا وأوجاعنا وكل آلامنا يكفي لننسى كل ذلك أن ننسرب إليه دقائق بسيطة في يومنا، حتى التغيير الذي لطالما فكرنا فيه ونشدناه من المحال أن يكون له مكان في حياتنا أو حتى أدنى فرصة للتحقق إذا لم يكن نابعاً من أعماقنا وهنا نتذكر" إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم " وبوذا يقول :" نحن ما نفكر فيه، وكل ما فينا ينبع من أفكارنا، وبأفكارنا نصنع عالمنا ".

لكم هو جديرٌ بنا أن نقف لوهلة من أنفسنا ونسأل : ماذا نريد ؟ ما الذي يسكننا ؟ فيما نفكر ؟ حينها فقط ندرك أن العبرة ليست في العالم الذي نسكنه ولكنها في العالم الذي يسكننا.. فأيُّ عالمٍ يسكنك؟!.

أول الدروس وأعظم الدروس

كل شيء كان في العتمة.. هكذا وجدت أعماقي في أول زيارة.. كنتُ غشيماً تنقصني المعرفة.. ينقصني الضوء.. ينقصني الدليل، فالأعماق فلاةٌ لا غور لها وبحرٌ من الظلمات..

ولطالما تساءلت: لماذا يُمجَّد الناس أولئك الذين استشهدوا في ساحة المعركة؟ إذ إن المرء ليُبدي شجاعةً مماثلة وهو يغوص في أعماق نفسه..!!

وعلى ذلك فإن استجابة الإنسان المفكر أو الأديب أو الكاتب لنداء أعماقه هو مقياس أصالته وهنا يتفاوت الكُتابُ.. فالنداء الباطن حاجة مُلحة إذا لم تُلبّ فإن المبدع العظيم يشعر بأنه سيموت...!!

أول زيارة كانت مأهولةً بخوف البدايات والمرء لا يؤاخذ على النظرة الأولى في عالم القيم بعدها تكررت الزيارات، إذ كنتُ كلما وجدتُ فرصةً للاختلاء بالنفس انسربت إلى الأعماق ولكن على وجسٍ خيفة أن يحس بي هذا العالم المأفون..!!

زائر الأعماق « مازوكي « بطبعه كمن يهاب مشاهدة أفلام الرعب بيد أنه لا يجد اللذة والمتعة إلا في مشاهدتها.. أو كمن يتلذذ بسادية الآخرين..!!

كل مرةٍ كنتُ أغوص فيها إلى أعماقي كان سقراط معي « اعرف نفسك « وبوذا « كما في أعماقك هكذا تكون « لأجل ذلك كان يلزمني المعرفق « معرفة الباطن « فالسطح شأن الجيف وعالم الحمقى والعبرة ليست في العالم الذي نسكنه بل في العالم الذي يسكننا.

في الأعماق لا يوجد أنصاف حلول ولا أنصاف مواقف، والأشياء كلها ملتبسة التباس الرؤى للرائي في علم النظرة،..

في الأعماق ثمة مسالك.. كلها زلقة، حوافها، حيطانها، ولا ما تتشبث به فإن سلكت فكن شجاعاً والشجاعة لا تعني انعدام الخوف بل وجود الخوف مع قوة الإرادة للمتابعة.. وإن أنت سلكت المسلك الخاطئ فسيكلفك ذلك أن تظل - ومن دون أن ترى - على خطأ حتى آخر رمقٍ في حياتك.. وقد تكون من أصحاب المنح فتجتمع لك كل المسالك في مسلكٍ واحد فتبدع فيها جميعاً ولكن تحت مسمى واحد هو اسم المسلك نفسه، ومثلما يقول المعلم الكبير بابا « موكتاناندا Baba muktannda»:

«كثيرٌ موجودٌ في واحد.. وواحدٌ موجود في كثير.. فكثيرٌ من الأواني تُصنع من طين واحد.. ومن مختلف النيران يسطع النور.. اعرف نفسك ستعرف السعادة الكامنة في باطنك.. فابحث عنها في الباطن..».

مراجع

1 - أيسوب: خرافات أيسوب ج 2 دار الفتى العربي القاهرة ط 2 1987م
2 - د. بركات. حليم : المجتمع العربي المعاصر مركز دراسات الوحدة العربية بيروت. ط6 1998م
3 - شابيرو ماكس، وروردا هندريكس : معجم الأساطير ت حنا عبود. دار علاء الدين – دمشق 199م
4 - د. الفقي. إبراهيم : المفاتيح العشرة للنجاح. المركز الكندي للتنمية البشرية. كندا، 1999م
5 - دونالد أو كليفتون وباولا نلسون : اطلق العنان لمقدراتك ت. د. محمد موفق المكي. دار آية. بيروت، دار المحبة دمشق.
6 - الديب، إبراهيم : أدوات القائد الناجح (طاقات عقلية وروحية لا محدودة). مؤسسة أم القرى – مصر 2. . 4م.
7 - د. شلق، علي : نقاط التطور في الأدب العربي، دار القلم – بيروت. ط1 1975م
8 - د. المقداد، قاسم : هندسة المعنى في السرد الاسطوري الملحمي (جلجامشن)، دار السؤال – دمشق ط1 1984م.
9 - برنس، موسى :الخط الأحمر ج2 1983م.
10 -الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، شرح د. محمد عبدالمنعم خفاجي – مكتبة الإيمان – المنصورة
11 -أنتوني روبنز : أيقظ قواك الخفية، ت : حصة إبراهيم منيف، مكتبة جرير- السعودية – ط 2. . 5م
12 -ثيودور ليفت ،الإدارة الحديثة، ترجمة : نيفين غراب. الدار الدولية للنشر والتوزيع
13 -د. إبراهيم، عبد الستار : الحكمة الضائعة – سلسلة عالم المعرفة الكويت -2. . 2م
14 -البردوني، عبدالله : أشتات ط 2 اليمن 1995م
15 -د. رضا، أكرم : إدارة الذات.
16 -مصطفى، فهيم : مهارات التفكير، دار التوزيع والنشر الاسلامية - مصر- القاهرة ط2. . 2م
17 - ويتلي. دنيس: سيكولوجية الدوافع
18 -كامو. البير: الإنسان المتمرد.
19 -البرغوثي، حسين : الضوء الازرق، كتاب في جريدة
20 -المدرسي، محمد تقي : المنطق الاسلام اصوله ومناهجه، دار الجيل الجديد – اليمن صنعاء.
21 -د. الفقي، ابراهيم: البرمجة اللغوية العصبية، المركز الكندي للتنمية البشرية – كندا.
22 -السيوطي : المزهر في علوم اللغة
23 -الجاحظ : الرسائل
24 -القرني، علي عائض : لاتحزن
25 -مطر، أميرة حلمي : في فلسفة الجمال، من افلاطون إلى سارتر.
26 -ديوان زهير بن ابي سلمى
27 -ديوان لبيد بن ابي ربيعة
28 -ديوان المتنبي
29 - ديوان أبو فراس الحمداني
30 -الأعمال الكاملة : البردوني
31 -المعري : الأعمال الكاملة
32 - القرآن الكريم
33 -الجاحظ : البيان والتبيين.
34 -أرسطو : كتاب الشعر
35 -ألف ليلة وليلة
36 -الكوني، إبراهيم : من أنت أيها الملاك.
37 -باولو كويلهو : الجبل الخامس
38 -ابن جني : الخصائص ج 2
39 - سوزان برناد، قراءة في قصيدة النثر.

40 -إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين.
41 -جون كنيدي، أمة من المهاجرين،
42 -نيلسون مانديلا: كتاب في جريدة

مجلات
43 -- مجلة المعرفة : العدد 12 ربيع الآخر 1426هـ مايو 2005م